من كنوز التراث الصوفي

ترتيب السلوك
في
طريق الله تعالى

للإمام زين الإسلام عبد الكريم القشيري

وهو سجل رائع لتجربته الشخصية في كيفية وصول الذاكرين إلى الحقيقة

قدم له وحققه وشرحه

الدكتور إبراهيم بسيوني

وعاونه

محمد أحمد غانم

من كنوز التراث الصوفى

ترتيب السلوك في طريق الله تعالى

للإمام زين الإسلام عبد الكريم القشيرى

وهو سجل رائع لتجربته الشخصية فى كيفية وصول الذاكرين إلى الحقيقة

قدم له وحققه وشرحه

الدكتور إبراهيم بسيونى

وعاونه

محمد أحمد غانم

بسم الله الرحمن الرحيم

« الذين يذكرون الله قيـــاما وقعــودا ، وعلى
جنـــوبهم ، ويتفكـــرون فى خلـــق الســـموات
والأرض ، ربنـــا مـــا خلقت هـــذا باطـــلا ،
سبحـــــانك فقنـــــا عـــــذاب النـــــــار »

« آل عمران »

« واذكـــر ربـــك فى نفســـك تضرعا وخيفـــة
ودون الجهـــر من القـــول بالغـــدو والآصـــال
ولا تكن من الغـــافلين »

« الأعـــراف »

« الا بذكر الله تطمئن القلوب »

« الرعـــد »

الباب الأول

تعريف بالكتاب وصاحبه

(١) القيمة العلمية للكتاب

هذا كتاب قليل الصفحات ولكنه على جـانب كبير من الأهميـة

هو قليل الصفحات لأنه آت من منطقة ــ فى رحلة الانسان الى ربه ــ يكون فيها النطق قليلا والعمل كثيرا ، بل تكون قدرة اللسان على التعبير قريبـة من العجز ، وتكون قـدرة القلب على التعبير فى أعلى صـورة لها حتى يصبح مقتضى الحال وقفا على البصيرة الكاشفة •• دون حاجة الى كلام أو نطق •

والكتاب على جانب كبير من الأهمية لأنه رسـالة مكتوبة تسجل تجربة ذاتية عاناها هذا الامام الجليل رضوان الله عليه ــ الذى قلما تحدث عن نفسه أو كتب عنها •

فطـوال اقترابى منه لعشرين عاما خلال مصنفاته العظيمة وأنا أقرأ له متكلما وفقيها ومفسرا وصوفيا وأديبا •• وحينما حاولت منذ عهد مبكر أن أكتب عن تجربته الشخصـية فى علم القلوب لم أجـد له وثيقة متكاملة فى صـعيد واحد ، فأخذت التمس ذلك من خـلال كتبه ، فقرة من هنا وفقرة من هناك ، وكنت فى أعماقى على غير اقتناع كامل بما أصنع ، لأنى كنت أعزوه فى نهاية الأمر الى القشيرى الباحث فى التصوف ، وليس للقشيرى الذى يعانى تجربة التصوف ويتذوقها •

ها نحن هنا نلتقى فى هذا الكتاب بما كنا نفتقده ، ولسوف نجد المصطلح الصوفى فى مكانه الصحيح من التجربه ، واسـوف نشعر

بحيوية المصطلح وهو فى هذا الموقع ، على خلاف ما تجده منتزعا فى الباب أو الأبواب المخصصة له فى اطار المعالجة النظرية والبحث المجرد •

***

والشيخ هنا يأخذ بأيدينا الى منطقة ذكر الله سبحانه باللسان ثم بالقلب ثم بالجوارح ، ثم كيف يشترك الكون كله مع العبد فى ذكر الله سبحانه بحيث ينغمران معا فى شمولية الذكر ، وتتجلى الهيبة فيكون السكون ، وتحتد البصيرة فيكون الكشف ، ويصبح العبد فى نهاية الأمر — وقد سقطت عنه كل ارادة فى نفسه لنفسه — مشمولا بتصريف الله تعالى •

وهو فى كل هذه المراحل مأخوذ عنه بقوة عليا ، تبسط له بين الحين والحين أنوارا تجلو مرآة نفسه ، وهكذا يعود الى جوهره بقلب منيب خاشع خاضع متذلل •• فكان الرحلة فى صميمها سلوكية بالدرجة الأولى ، وتنقية وتحلية فى نهاية الأمر •

***

والكتاب بهذه الصورة يقدم نفسه كأفضل رد على كل من أعداء التصوف وأدعياء التصوف فى آن واحد ، وهؤلاء وأولئك يجمعهما

شيء واحد هو محاولة اهانة التصــوف •• أولئك بدعاواهم البــاطلة وهؤلاء بمروقهم المشين ••

● نعم •• فهذه هي تجربة التصــوف العملي كما عاناها شيخ جليل من شيوخ أهل السنة والأشاعرة ، تبدأ وتنتهي في أدق مراحل التجربة وأشدها حساسية • ونشهد إننا ابتداء من سطور الكتاب الأولى الى نهايته لم نقف على مأخذ واحد يتعارض مع الدين الحنيف ، مع أن الأصل في الموضوع أن التصــوف تجربة متعبد ممتاز قد تنكشف له خــلال تعبده أشــياء لا تبدو المتعبد العادي •• وليس في هــذا (أرستقراطية) فكرية كما قد يظن ، بل ان الأمر في غاية البساطة ، أننا ننظر الى التدين على أنه نشاط انساني مكرس لعبادة الله سبحانه ، وكما نتوقع في كل بيئة ذات نشاط انساني أن يكون فيها الخــامل والعادي والمتوسط والممتاز ، فاننــا نتوقع أن نجد الذاكرين المحبين الزاهدين الذين لا شــغل لهم بمتاع الدنيا الزائل ، والذين يحافظون على كرامتهم ، والذين لا يمرغون أنفسهم في التزلف والرياء والنفاق والانتهــاز •• لا يعنيهم الجــاه والمنصب والمــال •• أقول نتوقــع بل نسلم لهم بالامتياز والتفوق ••• وبالتــالي فعلينا أن نتوقع منهم لغــة مختلفة توضــح ثباتا على القيم حيث تخور عزائم الصــغار ، وحبا لله يغمرهم ويأخذهم عن عالمنا الى عوالم بعيدة والى قمم عليــا والى شموس طالعة أبدا •

ونستطيع أن نتصــور طبيعة مثل هذه اللغة وهي تستلهم من الكشوف والأنوار •

● ومن السطور الأولى سيقرأ أعداء التصــوف وأدعياؤه أن الحرص على العلم والتعلم هــو البداية فى الطريق ، فلابد كما يقول الشيخ أن يتأدب المريد على شيخ يوثق فى علمه .

ومن السطور الأولى سيقرأ أعداء التصوف وأدعياؤه أن الحرص على الشريعة والفرائض والسنن وصــلاة الضحى وطهــارة النفس والبدن والثوب ، ونحو ذلك شرط أساس .

وفى نهاية الكتاب .. وحينما كان الشيخ فى حــال الجمع أعيد الى حال الفرق الثانى ليؤدى الصلاة فى موعدها .

وفيما بين المقدمة والخاتمة لا تجد حلولا أو اتحادا أو تناسخا فالعبد عبد والرب رب ، وبمقدار ما يتناهى العبد فى عبوديته يتعالى الرب فى ربوبيته ، والفنــاء والبقــاء هنا من قبيل التعبير عن حــالة الشعور ، وغيبة الذاكر فى تأملاته وذكره .

والشرب هنــا استحلاء وتلذذ بذكر الله يبدأ بالفم فى أصــول الأسنان ثم ينتشر فى كل حنايا البدن .

والدعــوة الى الفقر والذل ينبغى ألا تؤخذ فى تصيد ماكر يقلب الحقــائق والموازين ، لأن الفقر فى جنب الله أغلى من كنوز الأرض والذل فى كنف الله عز عبر عنه ابراهيم بن أدهم أحــد كبار الشــيوخ بقوله : لو علم أبناء الملوك ما نحن فيه من عز لجالدونا عليه .

وربما تجد خاتمة الكتاب غمزا من أعداء التصوف •• قد يقولون مثلا : أنظروا الى أى حـالة ينتهى التصـوف بصاحبه : عبد ناحـل الجسم ، جلد على عظم •• أهذه نهاية يرضاها الدين للمسلم ، والمسلم ينبغى أن يكون قويا •• الى غير ذلك من الاتهـامات التى لا يراد بها الا الباطل ، وما هكذا تؤخذ الأمور ، وتخلط الأوراق •

سـأغمد قلمى المشحوذ فى مواجهة المتخرصين الى حين ، وأدع الكلام للطبيب العالم الفيلسوف ابن سينا وهو يشخص قوة بدن هذا الزاهد العابد حين يقـول : من المعلوم أن الجسم كلما كثرت أغذيته كثرت السموم فيه الناجمة عن انتشـار الفضـلات ، وبهذا لا يكون الصفاء فى العقل ، فاذا قلت الأغذية قلت الفضلات وقلت السموم وزاد صفاء العقل » • المعرفة والعارفون آخر كتاب الاشارات والتنبيهات •

ثم استمع الى قصة الوزير العظيم نظام الملك الذى رصد لانشاء الأربطة والمساجد ميزانية بلغت ستمائة ألف دينار سنويا ، فلهج العلماء والزهاد والعباد والصـوفية باسمه ، « ولكن أهل السوء استكثروا النفقـات المبذولة على أهـل الورع ، فسـعوا بالوقيعة بين الوزير والسلطان ملكشاه السلجوقى زاعمين أن هذه النفقات تكفى لانشـاء جيش تتركز رايته فى أسر القسطنطينيـة فقـال له الوزير : يابنى أنا شيخ أعجمى لو نودى على فيمن يزيد لم أحفظ خمسـة دنانير ، وأنت غلام تركى لو نودى عليك عسـاك تحفظ ثلاثين دينارا ، وأنت مشتغل بلذاتك ومنهمك فى شهواتك ، وأكثر ما يصعد الى الله تعالى —

معاصيك دون طاعتك ، وجيوشك الذين تمدهم للنوائب اذا احتشدوا كانوا معك بسيف طوله ذراعان وقوس لا ينتهى مدى مرماها ثلاثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون فى المعاصى والخمور والملاهى والمزمار والطنبور ، **وأنا أقمت لك جيشا يسمى جيش الليل** ، اذا نامت جيوشك قامت جيوش الليل على أقدامها صفوفا بين يدى الرحمن فأرسلوا دموعهم وأطلقوا ألسنتهم ، ومدوا الى الله تعالى أكفهم بالدعـاء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك فى خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون وببركاتهـم تمطـرون وترزقـون .. فسـكت ملكشـاه » سراج الملوك ص ٢٦٧ .

***

● واذا كان لنا أن نضيف شيئا فاننا نقول ان التضحية فى أساسها قضية حب ، حب العبد للرب ، ولا نجادل سويا فى أنه حب كبير ، وكل حب كبير يقاس بعنصر التضحية فيه ، فاذا كنا نسيغ فى محب مخلوق لمخلوقة أن تتبدل حاله ، وأن يقل طعامه وشرابه ، وان يتشرد ويهيم على وجهه ، وأن يضعف بدنه .. الى آخـر ما نقرأ عن حب العذريين والرومانسيين فى كل العصـور فاننا نسمح لأنفسـنا أن ننظر بتفهم وباشـفاق لهذا المحب الواله فى حب مولاه ؟ فهذا هو الحب الأسمى والأسنى .

ومن قبل ذلك .. فان الصوفية لا يقولون بأن هذا الحب مطلوب من الكافة ، وانما هو مطلوب ممن لا يجرفه حطـام الدنيا الفانيـة ، وتستهويه مشاغل المنصب والجاه والمال .. هؤلاء هـم جيش الليل كما يقـول الوزير نظـام الملك : أجسـامهم ضـامرة ولكن صرخات استغاثتهم وأدعيتهم تتعـالى لتتناقلهـا الرياح الأربع عبر الكون الشاسـع ، هؤلاء هم الذين يبتغون فى حروبهم احـدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، هؤلاء هم المنتصرون لأنهم المؤمنون ..

أما ضمور الجسم ونحوله فتلك ظـواهر لا جواهر .. ياالهى ! ما أشد حاجتنا الى مئات صـابرة من أمثالهم كى نعيد صياغة تاريخنا الذى تاه منا !

ليكن البدن .. هذا القفص الترابى ما يكون .. المهم أن تشرئب الروح الى بارئها ، وعندئذ تكون أقوى الأقوياء على ظهر هذه الأرض . ومع كل ذلك .. فاننا نقول ان هذه الأحوال التى تنتاب العبد وهـو يتسـلق درج المحبة ليست الا حالا شهودية عابرة تتم أثناء خلوته ، فاذا ما قبضت عنه هذه الحال عاد ليمارس حياته العادية سواء أكان وزيرا أو خفيرا .

ولماذا نذهب بعيدا وانتم لا تنكرون أن انتشـار الاسـلام فى أصـقاع أفريقيا وآسـيا قد حمل بعض أملنتـه لفيف من خماص البطون ، الذين تتوله أرواحهم بذكر الله وحبه وابتغاء رضاه .

***

(٢) صَاحبُ الكتاب

نكتفى هنا من سيرة صاحب الكتاب بالنقاط التى تلقى الضوء على الكتاب الذى نحن بصدده •

ولد فى ربيع الأول من عـام ٣٧٦ ﻫ وتوفى فى السادس عشر من ربيع الآخر عام ٤٦٥ ﻫ •

وكان ميلاده فى استوا وهى احدى قرى مدينة نيسابور ، وتلقى تعليمه الأولى ودراساته الدينية فى قريته •

والقشيرى عربى النسب من جهة أبيه ومن جهة أمه ، فهو بهذه العروبة التى تجـرى فى أصـلابه من أحسن الردود على من يتهمون التصوف بأنه نتاج عناصر أجنبية غريبة عن العرب •

فهـو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحـة بن محمد القشيرى وكنيته أبو القاسم ولقبه زين الاسلام وشهرته القشيرى وأمه سلمية أخت أبى عقيل السلمى •

ترك القشيرى قريته استوا وذهب الى نيسابور ليتعلم الحساب كى يشارك مع لفيف من قريته فى اصلاح الموازين الاقتصـادية التى كانت قد اختلت نتيجة ثقل الخراج •

ولكنه فى نيسابور وجد نفســـه فى بيئة علمية خصبة جذبت كل اهتمامه للتزود منها فتلقى الفقه على يد الاسفراييني واصـــول الفقه على ابن فورك والمذهب الشافعى على يد أبو بكر الطوسى .

والى جانب ذلك غشى مجالس اللغــة والأدب ، وقرأ مصــنفات الباقلانى . ومعنى هذا أنه دخل فيما بعد الى حومة التصـــوف مزودا باسلحة كافية من العلوم العقلية والنقلية . وهذه مرة أخرى من أحسن الردود على من يتهمون التصوف والصوفية بجفاء العلم وأنهم يأمرون تلامذتهم بكسر محابرهم !

ولكن الصدفة وحدها وقعت به فى مجلس أبى على الحسن الدقاق الذى كان يتحدث فى علوم القلوب ، ومذهب أرباب الأحـــوال فى فهم الشريعــة والحقيقـــة ، ولم يســـتطع عبد الكريم الفكاك عن الحديث والشيخ ، فلزم مجلسه ولكن الشيخ أشار عليه أن يعود مرة أخـــرى الى مجلس العلوم العقلية والنقلية كى يزداد ثقافة فيهما .

ولم يستطع الشاب الافتراق عن الشيخ ، فحاول بقدر الوسع الجمع بين الرافدين ، فازداد اعجاب الدقاق به ، وقربه منه وازدادت الصلة بينهما توثقا ، وزوجه من ابنته فاطمة التى انجب منها فيما بعد ستة أبناء كلهم أئمة وكلهم من أرباب الأحوال كما انجب بنته أمه الرحيم أم عبد الغافر الفارسى صاحب تاريخ نيسابور .

وكان أثر الدقاق فيه بعيدا جدا ، وكان زواجه موفقا •• الأمر الذى ساعده على أن يحيا حياة طيبة خالية من التعقدات والصراعات مما يتجلى فى كتبه ، فهو مستقيم الفكر ، سوى النظرة ، واضح الرؤية ، مستمسك بمبادىء وقيم حافظ عليها طوال حياته وتظهر بوضوح من خلال مصنفاته •

ولكن القشيرى ـ شأن الأشاعرة ـ تعرض لمحنة قاسية ، وذلك حينما حشر الوزير الكندرى اسم أبى الحسن الأشعرى ضمن المبتدعة ، ثم استصدر الأمر من السلطان بسب المبتدعه وهكذا أصبح الناس واذا الأشاعرة يهاجمون على أعواد المنابر •

وحدثت فتنة اشترك فيها الشعب والجيش فى صدام عنيف ، ورأى القشيرى وأصحابه أن من الخير ترك البلاد ••

وفعلا هاجروا الدار والوطن والأهل ونزحوا حتى جاوروا رسول الله ﷺ ، ولبثوا الى جواره عشر سنوات كاملة • وذات يوم ، وكان الأمر قد استقر على أن يختاروا من بينهم واحدا يقول رأى يحسم الخلاف فى العودة أو عدم العودة الى الوطن • وكان هذا المختار هو عبد الكريم القشيرى •

وهنا تتجلى كرامة عظيمة للشيخ •• اذ كان يخطب فى الناس ثم رفع رأسه الى السماء •• وفجأة أخذ يهتف :

ياأهل خراسان بلادكم بلادكم .. انى لأرى الكندرى الآن وهو يمزق عضوا بعد عضو ، ويرسل كل عضو منه الى مكان بعيد .. هيا الى بلادكم . ثم أنشد :

عميد الملك ساعدك الليالى   على ما شئت من درك المعالى
فلم يك منك شىء غير أمر   بلعن المسلمين على التوالى
فقابلك البلاء بما تلاقى   فذق ما تستحق من الوبال

ويقول السبكى فى طبقات الشافعية : ضبط اليوم والتاريخ والساعة واذا برؤية الشيخ من بعيد تتحقق بالفعل .

وعاد القشيرى الى وطنه مع أصحابه ، وقضى السنوات العشر الأخيرة من ٤٤٥ الى ٤٥٥ فى هدوء واستقرار ، وكثرت تصانيفه وتعدد تلامذته الذين كتبوا عنه .

ومن أشهر كتب القشيرى : الرسالة ولطائف الاشارات والتحبير فى التذكير ونحو القلوب الكبير والصغير ، وشكاية أهل السنة ونكت أهل النهى وترتيب السلوك .. وغير ذلك كثير .

ويهمنا فى نهاية هذه الترجمة الموجزة أن نذكر شيئا له قيمة بالنسبة للسطور الأولى من الكتاب الذى نقدمه ، وهو مدى علاقته بشيخه كما يرويها بنفسه .

« لم آدخل على الأستاذ أبى على فى وقت بدايتى الا صائما وكنت أغتسل قبله ، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة فأرجع من الباب احتشاما منه أن أدخل عليه فاذا تجاسرت مرة ودخلت كنت اذا بلغت وسط المدرسة يصحبنى شبه خدر حتى لو غرز فى ابرة مثلا لعلى كنت لا أحس بها . ثم اذا قعدت لواقعة حدثت لى لم أحتج أن أسأله بلسانى عن المسألة فكما كنت اجلس كان يبتدىء بشرح واقعتى وغير مرة رأيت منه هذا عيانا .

ولا أذكر انى فى طول اختلافى الى مجلسه ثم كونى معه بعد حصول الوصلة أن جرى فى قلبى او خطر ببالى عليه قط اعتراض الى أن خرج رحمه الله من الدنيا » .

والى جوار ذلك تدلنا مصنفات القشيرى على مذهب له فى كرامة الأولياء ، وفى الرؤيا ، وفى معان خاصة للمصطلح الصوفى كالفناء والبقاء والشرب وجمع الجمع وغير ذلك من دقائق هذا العلم وهى آراء لا تخرج فى صميمها عن الشريعة قيد شعرة . بحيث يمكن القول فى نهاية الأمر أن القشيرى من أفضل نماذج الصوفية لتمثيل التصوف الاسلامى الحق فى كل العصور .

رحمه الله رحمة واسعة ، ونفعنا بعلمه .

(٣) نسختا الكتاب اللّتان اعتمدناهُمَا في البحْث

نعتمد فى تحقيق هذا الكتاب وتقويمه على نسختين :

(الأولى) بمكتبة الجامعة العربيــة بالقاهرة برقم ٢٩١٠ وهى تقع فى ثمانى عشرة ورقة من القطع الصغير ، وهى ذات خط متوسط الجودة ، وخالية من الترقيم والاعجام ، وليس بها تصويبات أو كشوط أو بياض • ونرمز لها بالرمز (ج) •

(الثانية) نشرها المعهد المركزى للأبحاث الاســلامية بباكستان بتحقيق الدكتور فير محمد حسن ضمن مجموعة من الرسائل القشيريه · شكاية أهل السنة والسماع ، وطبعتها المكتبة المصرية بصيدا •

ومع تقديرنا الكامل لعمل الدكتور فير الا أنه حرص على نقــل النسخة التى أتيحت له نقلا رسميا أى اعتمادا على رسم الكلمات • كما يبدو أنه كان بهوامش النسخة تصــويبات : اما من الناسخ الأصــلى أو من بعض القراء فيما بعد ، لأجل هذا وذاك فان قارىء نسخة الدكتور فير لا يشعر بتماسك العبارة ، ولا بقدرتها على نقل المعانى المقصودة • ولهذا نظن أن فائدة القــارىء العادى من الاطلاع على هــذه النسخة ليست محققة بالقدر الكاف • ولولا تمرسنا بأسلوب القشيرى خــلال عشرين عاما لانتابنا الســأم من قراءة النسخة ، واســتبعدنا تحقيقها لأى مقصد •

لهذا أقبلنا على التحقيق مستفيدين من النسختين ، وأضفنا الى ذلك من عندنا اضافات قليلة وضعناها بين قوسين (   ) وكنا نشعر أن السياق فى أشد الحاجة الى هذه الاضافات ، ولن يجد القارىء الآن صعوبة فى جنى ثمار الكتاب

كما حرصنا على اثبات الفروق بين النسختين فى هوامش الكتاب ما أمكن ذلك حتى يشترك القارىء فى المتابعة •

ورمزنا لهذه النسخة بالرمز (ف) ، وهى خالية من الحواشى العلمية تماما ، وليس لها مقدمة أو شروح ، ولكننا مع ذلك نكرر تقديرنا لعمل الدكتور فير ، فالعمل الرائد كثيرا ما يفتقر الى الكمال ••

ويأتى عملنا استكمالا لكل هذه الوجوه •• ونأمل أن ينفع الله سبحانه بهذا الكتاب الباحثين بعامة ، وعشاق القشيرى بخاصة • والحمد لله رب العالمين •

الباب الثانى

تحقيق النصّ وتقويمَه

قومنا النص على نسختين

١ ـ مخطوطة بالجامعة العربية برقم ٢٩١٠

ويرمز لها (ج)

٢ ـ وآخرى آخرجها فير

ويرمز لها (ف)

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وسهل

(١)(بداية الطريق : التأدب بشيخ)

قال الأستاذ رضى الله عنه :

يجب أن يكون العبد مجردا عن الدنيا ، لا يملك شيئا ، وأن يكون عالما بما يلزمه من فرائض الحق سبحانه وتعالى عليه : توحيدا وشريعة .

وأن يكون أبدا على الطهارة فى نفسه وأثوابه .

وعليه أن يتلمذ لمن سلك — من بين الناس — طريق الله تعالى وتجرد لذلك .

وعليه ألا يشتغل بشيء سوى الحق — سبحانه — حتى ينفعه التعليم .

والتلمذة لمن سلك طريق الله سبحانه وتعالى تجعل السلوك فى طريق الله أقوى وأسرع ، أما من تلمذ لمن لا يوثق فى علمه بهذا الطريق فقد تحجب(٢) .

---

(١) هذه العناوين الجزئية المرتمة والموضوعة بين قوسين ( ) هى من وضعنا .. تسهيلا للرجوع الى شروحها فى الباب الثالث .

(٢) فى ج تعجب وفى ف تحجب وهى الصحيحة .

انه قد يصل مرة •• ولكن بعد حين ولا يكون بتلك السرعة ، لأنه لا يعنيه شيء عن همة(١) أستاذه وعلمه ، وهو فى هذا يكون أشبه بالولد من فحل سوء أما الأول فيكون كالولد عن فحل نجيب •

***

ويشترط الأستاذ على المريد أن يختار الفقر على الغنى ، والذل على العز ، والله ـــ سبحانه ـــ على غير الله •

والا ياكل (الا) ما يعينـــه(٢) ـــ وان أكـــل غيره ، وألا يقول ما لا يعنيه ـــ وان قاله غيره ، وألا يؤثر الرخاء ـــ وان آثره الذين يراهم معه فى الرباط •

فاذا ما قبل هذه الطريق يقول له الأستاذ : قبلتك لأوصـــلك الى طريق الله تعالى بقدر ما تعرف ، وانى لن أبخل عليك بقدر ما عرفته •

ثم يبدأ بتعريفه بأن يوصيه(٣) ان يرى جميع احواله من الله ، وأن أى تـــوفيق يصـــيبه فهـــو من الله •• ثم يقـــول لـــه قـــل : الله الله الله • ويشدد وصيته له بأن يواظب على هذا الذكر ، وألا يشهد غيره ، وألا يفكر فى غيره ، وأنه اذا شغله عن هذا الذكر أمر من أمور الدنيا فالواجب طرح ذلك الأمر •• حتى لو كان موت والديه !

---

(١) فى ج همت بالتاء المفتوحه •
(٢) فى ف يغنيه وهى ساقطة فى ج •
(٣) فى ف يوصيه الاستاذ •

ويوصيه الأستاذ باتباع الطاعات ، وبخاصة آداء الفرائض والسنن وركعتي الضحى ، وبعد كل وضوء ركعتين •• ثم يعود بعد اداء هذه الطاعات الى الذكر (دون سواه) •

(٢)(الذكر وامتداده)

ويستمر المريد فى الذكر حتى يغيب بـه عن جميع الأشياء ، ويتوقف ذلك تماما على توفيق الله اياه فى تقوية ارادته •

ثم يغيب بالذكر عن نفسه •

ثم يغيب بالذكر عن الذكر •

ويبقى مرددا مدة طويلة بين غيبة(١) عن الذكر بالذكر ، وبين حضور للذكر بالذكر ، ولا يزال يرتقى فى كل غيبة وحضور الى رتبة أخـرى •

حتى يرد وروداآخر عليه آعلى مما سبق ، وعنده يفنى العبد عن كل هذه الأحوال ـــ وهذه هى حال البقاء ، وهى غيبة يسلب فيها عنه لسانه وسمعه وبصره وتبقى له شهادة القلب ، ويعجز فيهما اللسان • ويكون القول هنا بالقلب ، نطقا •• لا علما أو مشاهدة ، بل كما كان ينطق بلسانه من قبل فانه هنا يذكر بقلبه •

---

(١) فى ج عينيه وهى خطأ فى النسخ .

حتى يــرد عليه ورود آخــر أعلى من ســابقه ، وذلك بعـــد مدة ـــ حسبما يشــاء الله له وعليه • ويكون هــذا الورود من حيث الهيبة ، وحين يبدو هذا الورود يظن العبد (عنده) أنــه قريب من أنوار الحق ويفنى العبد فى هذا الورود • وعند ذلك يردد العبـــد بين حالى البقاء والفناء •

وفى كل مرة يرد الى البقاء تزداد عبارات قلبه حتى تنتهى الى اذكار يجدها قلبه(١) مدة بالسنة مختلفة ، وبعبارات لم يسمعها من قبل ولا(٢) خطرت بباله •• انها كلها ذكر لله(٣) يملأ كل قلبه حتى انه ليتوهم أن جملة الكون كله تشترك بعبارات مختلفة فى هذا الذكر • ويصير العبد بحيث لا يميز بين الذكر الذى يبدو من قلبه وبين ذكر الكون من حوله ، وذلك بسبب غليات الاذكار عليه ، فهو يسمعها كلها فى وقت واحد •

وبعد ذلك يورد ورودا آخر ، وخير وصف له أن من ذاقه من سالكى هذه الطريقة ـــ على سبيل الوهلة(٤) ـــ فانه يموت وذلك من هيبة الحق ـــ سبحانه • وعند هــذا الورود يفنى العبـــد ولا يبقى منه شىء •

---

(١) هكذا فى ج وهى فى ف (قبله) •

(٢) هكذا فى ج وهى فى ف (والا) •

(٣) هكذا فى ج وهى فى ف (الله) وهى غير مرفوضة فى السياق •

(٤) فى النسختين (الوصلة) وهى خطأ ـــ كما نعلم من أسلوب القشيرى فى هذا السياق •

وبعده يرد الى حال البقاء فتسلب(١) عنه أحوال القلب من الشهادة وغيرها اذ يبدو له من الغيب سر ، وعلامته ألا يبقى(٢) للعبد أنفسه فى نفسه شيء ، فليس له الا الله ، هذه الحالة تشبه حالة البحر عندما تصير كل الأنهار اليه وبحكمه .. وليس لغير الله حكم . وعندها لا يكون(٣) من العبد حركة .. وكان قبلها يتحرك بالوارد الذى يرد عليه ، أما الان(٤) فانه يتحرك بحركة البحر . فاذا بدا تحرك البحر تحرك ، وان سكن سكن ، وهو انما يسمع ويبصر ويشهد بما يبدو له ، وليس بعد هذه الحالة لبشريته من سلطان عليه ، ولا حتى لذكره أو جميع أحواله .. انما السلطان هنا(٥) للبارى وحده — عز شانه .

والعبد فى خلال هذه الحال الأخيرة ، وعند وصوله الى هذا المقام الذى هو نهاية — يرى جملة الكون يضيء(٦) بنور الله تعالى بحيث لا يخفى عليه فيه شيء ، فكأنه يرى جميع الكون من السماء والأرض .. لا رؤية عيان ولكن رؤية قلب وبصيره ، لأنه لا يرى فى هذا الوقت (بعينه من حيث هو شيء)(٧) ، كما أنها ليست رؤية علم حيث لا يشعر بحركة فى الكون لذرة أو لنملة .

---

(١) فى ف (يسلب) .
(٢) فى ج (فلم يبق) وفى ف (فلا يبقى) .
(٣) فى ج (والا يكون) .
(٤) فى ف (فالآن) وهى غير مرفوضة فى السياق .
(٥) هكذا فى ج وهى ف (هذه) وقد تكون فى الأصل (فى هذه) .
(٦) هكذا فى ج وهى فى ف (لهن) والسياق يرفضها .
(٧) ما بين القوسين مبهم فى النسختين وقد قومناها هكذا ليستقيم السياق .

الفصل الأول

(٣)(مَحَاذيرُ وَعُقوبَات)

اذا تحقق الذاكر فى ذكر اللسان رجع ذكر لسانه الى القلب ، (فيذكر بقلبه ، وعند ذاك ترد عليه احوال يجدها ويسمعها)(١) من قلبه ذكرا لله ، انها اسماء وأذكار لم يسمعها من قبل قط ، ولا قرآها فى كتاب ، انها بعبارات مختلفة وألسنة متباينة •

والعبد — ان لازم همته ، ولم يلتفت الى هذه الواردات ولم يلاحظها نال(٢) منها المزيد بعد المزيد حتى ينتهى الأمر الى ذكر السر •

ومرة آخرى •• ان التفت الى ما يجرى عليه من هذه الأحوال ، لاحظ هذه التسميات والأذكار ، أو نظر اليهما واشتغل بها — فهو قد أساء الأدب واستحق العقوبة فى الوقت ، وعقوبته : أن ينقطع — أولا — عنه المزيد(٣) ، ثم يعاقب ثانيا ان صبر على ذلك • وتكون العقوبة بان (يرد عن هذه الأحوال الى حال العلم)(٤) •• اذ يظن — متوهما — أنه قد فتح عليه بعلوم(٥) الأولين والآخرين •

(١) ما بين القوسين مقوم حسبما ورد فى الكتاب نفسه فى مواضع شتى •

(٢) فى ج (مال) وهى مرفوضة فى المعنى •

(٣) فى ج (المريد) وهى غير مقبولة •

(٤) فى النسختين (بان يرد الى حال العلم) •

وعندما يلاحظ ذلك ويغتر به فهو من قبيل ســـوء الأدب الذى يستحق العقوبة ، والعقوبة هنا بأن يرد الى حال الفهم •

والفرق بين حال الفهم وحال العلم أن العلم كان وجوها(١) ترد على قلبه أما الفهم فهو نظر الى هذا العلم ، فكأن(٢) الفهم هو علم بأنه كان له علم بتلك المسائل •

وهو ان نظر الى الفهم فقد أساء الأدب وعقوبته فى هذه المرة الأخيرة أن يرد الى حال الغفلة ــ (والعياذ بالله)(٣) •

---

(١) فى ت (وجود) •
(٢) فى ف (كان) وفى ج (كان) •
(٣) اضافة من عندنا ليتماسك السياق ويتضح •

الفصل الثانى

(٤) (القلبُ الذاكرُ)

اذا ذكر العبد بلسانه وقويت(١) همته فى هــذا الذكر وواظب على ذلك حريصــا عليه راغبــافيه بحيث لا يبقى(٢) منه جــزء(٣) الا وله الحرص والرغبة ــ فانه ينظر بقلبه فيجد أحوالا ترد عليه أثر أحوال ، فقــد يتوهم انه يربو ويعظم حتى كأنه يصير أكبر من كل شيء !

وعند هذا التوهم يرد عليه من الحق سبحانه قهــر من خوف يدهشه ، وبه يمنع(٤) العبــد من أن يعظم فى نظر نفسه ، فيذهب ذلك عنه ، ثم يصطلمه(٥) فيبيده .

فاذا أعاده عاد العبد الى حالة أقوى من الأولى . ويعظم حتى كأنه أعلى من حالتــه الأولى .. فيرده .. وهكذا : لا يزال العبــد مرددا بين هذه الأحوال :

---

(١) هكذا فى ج وهى فى ف (فتتوى) .
(٢) فى ف (الأ يبق) وهى خطأ اسلوبى ونحوى .
(٣) فى ف (جــزو) ولا بأس بها ، ولكننــا آثرنا الاســهل على اللســان .
(٤) فى ف مشتبهة .
(٥) فى ف (يصطلبه) وهى خطأ ، لان الاصطلام اصطلاح صــوفى (انظر الشروح) .

زيادة يرتقى بها مع كل نفس وكل ساعة الى أن يرد عليه قهر عظيم •• وتلك شئون ذكر اللسان •

فاذا فنى الذاكر فى ذكر اللسان ـ كما سبق ـ انقطع عنه ذكر اللسان ، وعندئذ لا يجد العبد من نفسه شيئا : لا من السمع ولا من البصر ـ الا شيئا (١) ضعيفا ، ويصير كل ذلك بحدئذ الى القلب ، فيسمع من قلبه الذكر •• وعند هذه الحالة يتمنى أن يكون وحده فى مفازة! لأن عنده أن الناس يسمعون بآذانهم ذلك الذكر الذى فى قلبه ، وهو لا يدرى أن أحدا غيره ليس يسمع ذلك الذكر •

---

(١) هكذا فى ج وهى ف (شاه) ولا معنى لها •

الفصل الثالث

(٥)(ذكر الجوارح)

عند(١) ابتداء الذكر بالجوارح يجد العبد حركة فى كل جوارحه حتى لا يبقى جزء من لحمه وعظمه الا وفيه حركة واختلاج .

وتقوى الحركات والاختلاجات حتى تصير أصواتا وكلمات تنبعث مسموعة من جميع الجوارح والأجزاء ـ ماعدا اللسان ، لأن اللسان لا ينطق فى مثل هذه الأحوال .

ويلازم العبد التركيز فى هذه المهمة وهو يتيقن أنه لو لاحظ هذه الأذكار وطلب علمها فانه ينفى عنها الى غيرها .. ذلك لأن الذكر قد وقع على القلب .

صحيح انه فى حال ذكر اللسان قد يكون للجوارح حركات واختلاجات ولكنها ليست على هذه الدرجه من القوة والشمولية .

---

(١) فى ف (فى البداء)

الفصل الرابع

(٦)(الشّـــرب)

يظهر على العبد شيء يجـد له حلاوة فى فيـه وفى حلقـه حتى ليقوم(١) له ذلك مقام طعامه وشرابه ، وهو يجد منبع ذلك الشراب ـ فى(٢) أصول أسنانه ـ أحلى من العسل ، فيبقى أسنانه مطبقة بعضها على بعض ، ويشق عليـه لو يفتح فاه حينما يجد الشراب فى فيه على هذا الوصف .

وفى حال هذا الشرب يقرب العبد من الموت كأنه(٣) يذوب ويكاد يموت ، والواقع انه لا يخاف عند ذلك الا من الموت ، لأنه يحول بينه وبين هذا الشرب .

وهذه الرتبة التى يبلغها العبد يهرب عندها ألف رجل من هـذه اللذة ، ولا يهرب منهم واحد من الألم ، لأن(٤) هذه اللذة أصعب وأقرب من الموت ، حيث يذوب العبد ويتلاشى وكأنه فى طريقـه الى الموت . وقـد يبلغ العبد فى هذه الحالة الى درجه أنه ان صحبته هذه اللـذة دون أن تسـقط عنه الى حـال (أدنى) ان يهرب من الخلـوة ، لأنه اذا ما خلا هكذا ساعة استولت عليه اللذة حتى تقرب به(٥) من الموت .

---

(١) فى ف (يقوم) .

(٢) فى ج هكذا وهى فى ف (من) ولا بأس بها ايضا .

(٣) فى ف (بحيث) وهى جميلة فى السـياق ولكننـا آثرنا فى (ج) توضيحا لمرحلة ادنى من مرحلة قادمة .

(٤) فى ف (فان) وليست خطأ .

(٥) فى ف (تقربه) .

ولهذا فان بعض المبتدئين يهرولون من الخلـوة عندئذ ويؤثرون الخلق(١) هروبا من هذه اللذة •• ويقول أحدهم : أنا أهرب من الخلوة لهذا الشأن !

قال الأستاذ :

وصاحب هذه الأحوال فى حال هذه اللذة تقوى معرفته ، ويحتد بصره وبصـيرته حتى كأنه يسمع وقع أقدام النمل ! وهو فى البداية يتمنى ألا ينام(٢) ، ويبذل أكبر همته فى ألا يجد المنام أو يستريح من هذه المسألة • ولهذا فان علامة صـحة هذه اللذة أن العبد لا يأخذه النوم طالما هو فى هذه المسـألة حتى لو بقى سنين •• (وعندما تضعف هذه المسألة)(٣) فانه يجد النوم(٤) •

---

(١) هكذا فى ج وهى فى ف (الخلوة) وهى خطأ فى السياق •
(٢) فى ف (المنام) والسياق يرفضها •
(٣) فى ف مضطربة العبارة •
(٤) هكذا فى ج وهى فى ف (المنام) •

الفصل الخامس

(٧) (حَال جَمْع الجَمْع)

لأهل النهاية مسـألة •• وهى أنهم قد يرد(١) عى سرهم مرة خطاب لا يشكون أنه من الحق سبحانه ، ويكون هذا الخطاب باللطف(٢) والمناجاة ، فيجيب السر على هذا الخطاب •

والعبد يسمع من الحق الخطاب ومن السر الجواب(٣) •

فاذا كان الخطاب بالهيبة سكن السر من هذه الهيبة •

ولكن العبد قد يجد مرة كلاما هو فى نفسه خطاب وجواب ، وأنه ـ أى العبد ـ ليس له فى هذا أو ذاك شىء يعلمه بمعرفته الخاصة ، وانما هو أشبه بالنائم عنهما •• انه ليس هو الحق •• لا بل ان ذلك كلام الحق ••انها حيرة ، وليس له أى تمييز •

وهكذا •• فان غابت(٤) عن العبد هذه المعرفة اللطيفه ، وارتفع عنه التمييز فقد وصل الى حال جمع الجمع ، (وتصدر عن العبد عبارات ظاهرها غريب غامض ولكن باطنها سليم) •

---

(١) فى ف واو زائدة (قد ويرد) .

(٢) فى ج (اللطيف) .

(٣) هكذا فى ج وهى فى ف (والعبد يسمع من السر الجواب) ومن الحق (الخطاب) ولكن السياق يقتضى تقويم النص على هذا النحو .

(٤) فى ف (غاب) .

الفصل السادس

(٨) (حينما يقتحم الشيطان حصن أرباب الأحوال)

العبد يعرف الخواطر ، ويميز بينها . وذلك بأن يعرضها على العلم والأمر والنهى ، فما يصح منها (فى ضوء ذلك) فهو الصحيح ، وما لا يصح فهو باطل يجب طرحه .

والطف من(١) ذلك مسألة أخرى .. هى (٢) أنه ربما يكون العبد قد وصل الى حال شريفة ، ويريد الشيطان أن يرده عنها الى حال(٣) أدنى من تلك الحال .. فيدخل عليه الشيطان ويخطر بباله . ولكن العبد حينما يعرض ذلك الخاطر الدخيل على العلم وعلى الأمر والنهى يكون صحيحا — مع أنه من الشيطان . ولكن هذا العبد العارف يعرف بمقدار (معرفته حقيقة الأمر)(٤) .. وقل فى الناس من يفطن الى ذلك .

ان العبد يعرف حقيقة الأمر بانه يشعر بوحشة تعود عليه منه ، ولهذا فحينما يصل الى القلب ويرد(٥) عليه يصرفه القلب فورا لأنه يوجمه كأنما هو طعام ليس به ملح .

---

(١) فى ف (فى) .

(٢) فى النسختين (وهو) .

(٣) فى ج (حالة) والكلام فى الأحوال ومفردها حال حسب المصطلح .

(٤) عبارة متوهمة لأن الأصل مضطرب .

(٥) فى ج وف (أورده) .

فالعبد اذا يعلم حقيقة الأمـــر (المريب) بما له من وحشـــة(١) وسماجة •• واذن فليس ذلك من لدن الحق سبحانه بل من الشيطان •• مهمـــا كان ظـــاهره ، حتى لو دعـــا الى منـــاعة : كالأمر بالحج أو بر الوالدين مثلا •

وانما قصد الشيطان أن يرتج على العبد برده من الحالة العليـــا الى الحـــالة الدنيا ، ويريد الشيطان أن يربح مراده فى هـــذا العبد بهذا المقدار •

كذلك فان هـــذا الخاطر ـــ الذى من الشيطان ـــ انما يعلم أنه منه بكونه ضدا للحال التى عليها العبد ، ومع أن الشيطان ربما يصور للعبد أن تلك حالة أعلى من حالتـــه الا أنه يكون ضـــدا لما بالعبد (فى ميزان) الاستحلاء والوحشة • أما اذا كان الخاطر من الحق سبحانه فانه يجد له الشكلية لما مع(٢) العبد فيتفقان ، كشخصين(٣) متفقين فى الصنعة والهمة يلتقيان ويتفقان ، أما اذا كانا ضدين فى الحرفه فانهما يتزاحمان • وكذلك شأن العبد : اذا كان على خاطر من الحق سبحانه ، ومعه (ما معه) من الصناعة ورأس(٤) المـــال فاذا(٥) ورد عليه شىء من الشيطان عند ذلك استطاع أن يفرق وأن يميز بينه وبين ما هو عليـــه

---

(١) فى ج (بالوجه) وفى ف (بالوحثة) بالثاء •

(٢) فى ج (معما) وفى ف (مع ما) •

(٣) فى ج (بشخصين) •

(٤) فى ج (وراش) •

(٥) (الفاء) اضافة من عندنا لتماسك السياق •

(فى ميزان) الضدية والشكلية ، أى بين وارد الشيطان — لعنه الله ، وبين وارد الحق(١) — جل وعلا .

هذه الخواطر والأحوال التي ترد على العبد لها أصوات يسمعها العبد ، وهى أحلى مـا يكون وأحسن مـا يكون حتى كأنها ألذ وأطرب وأشـهى من أصـوات الأوتار والمزامير والبرابط(٢) كلها أصـوات حلوة(٣) حسنة .

ولكن قد يأتى الخاطر من الشيطان بحلاوة أيضا .. بل ربما كان أتم حلاوة — فى الصورة — من هذا الذى عليه العبد . ولكن(٤) مـع ذلك ، ومهما ألح الشيطان على العبد فيه فان العبد لا يعود عليه أنس (أو راحة) .

ولذلك فانه اذا كانت للعبد هذه الأحوال(٥) (الشريفة) ووردت عليه خواطر من طرف الشيطان فان العبد يتوصل الى أنها من الشيطان ، وذلك لما يجد بينها وبين ما عنده من الحق (فى ميزان) الوحشـة(٦) والاختلاف .

---

(١) فى النسختين (وبين مـا معه من الحق) وقـد قومنا النص بمـا يوضح الاسلوب على نحو ايسر .

(٢) كلمة فارسية مفردهـا (بربط) وهو آلة موسيقية ذات أوتـار كالعود .

(٣) فى ف (خلق) .

(٤) فى ف (وكان) .

(٥) فى ج (الاصوات) .

أما اذا لم يكن للعبد شيء من الحق من الأحوال الشريفة فانه لا يتوصل على وجه الاستيقان : هل هي من الشيطان أم من الحق • على أنه اذا قوى في الذكر ترقى(١) بالتدريج الى سماع الأصوات المؤنسة ، فاذا(٢) ما ورد عليه خاطر من الشيطان بعدئذ ميزه بالضدية لما بينه وبين ما صار لديه من الحق ـ سبحانه(٣) •

---

(١) في النسختين (فنترقى) •
(٢) (الفاء) اضافة من عندنا •
(٣) اضافة من عندنا •

الفصل السابع

(٩)(السكون وإسقاط التدبير)

قال : مثل(١) المبتدئين مع الاحوال كمثل (الانسان) مع الطير الوحشى ، فاذا(٢) كان فى الانسان حركه أو قوة أو أثر للحياة والحس فر منه (الطير الوحشى) واستوحش ولم(٣) يقع عليه . أما اذا سكن الانسان فان الطير الوحشى يتوهم أنه ميت لا حراك فيه ، فيأنس به ويقع عليه ولا ينفر منه .

كذلك(٤) المبتدىء فى الأحوال يجب ان تسكن حواسه وألا تتحرك انفاسه ، وألا يحرك بدنه أو جزء من بدنه ، وألا يمد طرفه للاشياء(٥) ، وأن يكون مراعيا لهمته بحيث لا يتحرك جزء من نفسه او من بدنه أو من باطنه حتى تبدو له الاحوال بعد طول هذه المراعاة(٦) .

وحينما ترد هذه الاحوال ينبغى ألا ينظر اليها ، ولا الى ما يبدو له منها البته لئلا(٧) يحجب عنها ، وبهذا (ينال) عليه المزيد منها — ان شاء الله تعالى .

---

(١) فى النسختين (فعل) بدون نقط .
(٢) فى النسختين (فان) ولا باس بها .
(٣) فى النسختين (ولا) .
(٤) فى ج (كذى) وفى ف (كذا) .
(٥) فى النسختين (ولا شيئا) .
(٦) فى ج (المراعات) بفتح التاء .
(٧) فى ج (ليلا) .

قال : وهذا الطريق ــ الذى هو طريق الله تعالى ــ لابد فيه من طول المجاهدة ، والمقاساة لما تحتمله الأسماع والقلوب من الشدائد حينما تحل بالعبد •

والعبد لا يؤثر هذه المجاهدات (باختياره) ولكنه(١) حينما يسلك سبيل الله تعالى تدخل هذه المجاهدات عليه (شاء أم ابى)(٢) لأنه لو كان منها شىء بتكلفه ما صبر عليها قليلا أو كثيرا •

(وتعود بى الذكرى) الى عهد ابتدائى فى الارادة والمجاهدة وأحوال الذكر أنه كان لو استتر عنى(٣) شىء من هذا السخاء(٤) لكان ذلك أهون على من أن أقوم للأكل أواتحرك للوضوء وغير ذلك • ولكن جاء وقت بعد ذلك حينما كنت أغيب فى الذكر أو يغيب عنى(٥) فيه الذكر كان يشق على التقصى عما أنا فيه حتى لا يفوت الذكر ، بل كانت تدخل على تلك المجاهدات ــ شئت ام ابيت لئلا ارد الى ما عليه الناس من احوالهم •

***

---

(١) فى النسختين (ولكن) .

(٢) فى ج (شيا أم ابا) وفيها خطا فى النسخ .

(٣) فى النسختين (منى) والصحيح ما اثبتناه .

(٤) فى ف (السماء) ولكن الاحوال فيض الجود والسخاء .

(٥) فى ج (عن) .

(١٠)(مُطاردة النوم والغفلة)

قال : وكانت تجرى على أشياء فى حال الذكر عند(١) قرب (حصول) كرامات ، ولكنها كانت فى ذلك الوقت (بعينه) أشد من الزلة(٢) ، ولو ابتليت بالزلة لكان (صرفها) عنى أهون منها ، وذلك مثل مقاومة غلبة النوم . لقد كنت أريد ألا أنام البتة حتى لا أغيب عما أنا فيه من الذكر لحظة واحدة .

لهذا .. كنت أصعد لأقعد على حجر ناتىء فى جدران بيتنا(٣) ، وكان هذا الحجر من الصغر(٤) بمقدار ما أضع عليه قدمى (فقط) . وكان من تحتى واد ، ومن فوقى شاهق(٥) .. وهكذا كنت أطرد النوم اذا توهمت نفسى مستلقيا على هذا الحجر الصغير المعلق فى(٦) الهواء دون أن يكون(٧) تحتى شىء !

---

(١) فى ج (عيد) .

(٢) فى ف (الزنا) .

(٣) غير واضحة فى النسختين .

(٤) فى النسختين (الحجر) .

(٥) فى ج (ساحق) .

(٦) فى النسختين (على) ولا باس بها .

(٧) فى ج (كان) .

أو ربما كنت — وأنا في هذه الأحوال — بالمسجد وأريد أن(١) ادخل الزقاق(٢) .. فكنت أمنع نفسي عن ذلك حتى لا انظر الى شيء (يشتتني) فاقعد بالمسجد وأجهد ألا يأخذني النوم ، وأحيانا أنتبه فاذا أنا أجد نفسي في الزقاق !

كنت أرى هذه الأحوال ، وكنت أعدها غفلات ، وكنت أقول لنفسي هو ذا يقبضني(٣) بالنوم عن الذكر ، وبه لا يجعل لي سبيلا الى البسط(٤) .. (فاغالب حتى أتيقظ) ، وأعود الى الذكر .

---

(١) في ج (ارهان) ولا معنى لها .
(٢) في النسختين (الكوجه) وهي كلمة فارسية بمعنى الحارة او الزقاق .
(٣) في ب (يقطعني) .
(٤) في ج (البسيط) وهي خطأ .

الفصل الثامن

(١١) (تنبيه للمبتدئين)

قال الأستاذ :

المبتدىء — فى ابتداء أمره — يجتهد ويجتهد •• فيتباعد(١) عنه مقصوده — هكذا أجرى(٢) الله تعالى (سنته) •

ولكن •• بعدئذ وبفضل منه سبحانه يظهر له الكشف بعد يأس •

وهكذا كنت أنا فى الابتداء •• كنت كلما ازددت جهدا ازداد الشىء المقصود عنى(٣) بعدا ، تلك أيضا كانت سنته تعالى معى • ولكن بعد استدامة الذكر ، وورود أحواله جـاء وقت بلغت فيه الى موضع كنت أرى (بنفاذ البصيرة) جميع المخلوقات ، وذلك حينما اصل الى الانتهاء الذى عنده تظهر أنوار الحق ويبلغ الذكر السر(٤) ، وبعدئذ أعاد الى البصر والى مثل احوال الناس •

---

(١) فى ج (فيباعد) .

(٢) فى ج (كذى أجر) .

(٣) فى النسختين (منه) .

(٤) فى ج (يمس) وهى خطأ من الناسخ .

الفصل التاسع

(١٢) (نهايات الأحوال)

ومن خلوص الأحوال ما كان بيني وبين أبي الفوارس وأبي على الحسن(١) كانا عندي .. وكانت ليله العيد ، وكانا نائمين فخطر ببالي ان لو كان عندنا سمن لطعمنا اليوم كذا وكذا .

واذا بأبي الحسن وهو في النوم يقول :

ألق هذا السمن من يدك ! ايش هذا ؟ وكرر ذلك ثلاث(٢) مرات .

فأيقظته من النوم .. وقلت له : ايش تقول ؟

فقال : لا شيء .. الا أني كنت أرى في النوم كأننا في موضع رفيع ، وكانت ارادة الحق أن تظهر أنوار الهيبة ، ووقعت الهيبه(٣) على الناس ، وأنت معنا وبيدك سمن فصحت بك قائلا : ألق السمن(٤) من يدك !

ومرة أخـــرى كنا قد بلغنا ذكر القلب فقال لي أبو علي الحسن : اذهب معي الى بعض القرى(٥) ..

---

(١) في ف (أبي الحسن) وعـــدد غير أبـــا الحسن الخرقاني ، ولكن معرفته بشيخ القشيري الذي علمه ، وأخـــذ عنـــه طريقته تجعلنا نفترض أنه هو المقصود (انظر ترجمة القشيري في المقدمة) .

(٢) في ج (ثلث) .

(٣) في ج (الهية) بدون باء والمقصود حال الهيبة .

(٤) في ج (سمن) بدون أداة التعريف .

(٥) في النسختين (بعض الرســـاتيق) وهي جمـــع رســـتق كلمة فارسية معناها القرية .

وسرنا ، ثم قال لى ونحن فى الطريق :

أقعد على هـذا الحجر ، وأطبق ما بين شفتيك وقـل : يا الله يا الله يا الله(١) .

ففعلت ، واجتهدت ألا أفتح الفم حتى امتلأ بالذكر ، وعاد الذكر الى السر ، وبقيت فى ذلك الـوقت على هـذا واجتهـد فى سرى أن أداوم : يا الله يا الله يا الله وأجرى فى سرى ذلك ، وقد يجاوز الخاوة(٢) أو لا يجاوزها .. الى أن صار ممتدا .. ثم آخذت عنى ففنيت . فلما أعدت ـ وكان عند(٣) الصلاة ـ حملنى (الشيخ) فى تلك الليلة الى القرية . وفى الليلة (ذاتها) ردنى الى البلد .

وأخذت فى النحول حتى صرت عظاما ولا لحم لى(٤) البتـة ، ولم يبق لى منه الا جلدا(٥) .. كل ذلك فى يوم واحد وليلة واحدة !

---

(١) فى النسختين قل (خـدائى) وهى كلمـة بالفارسـية معناهـا يا الله او يا الهى .

(٢) فى ج وف (الخلاء) وهى مصدر خـلا خلاء وخلوة وقـد آثرنا (خلوة) لانها الاقرب الى الأذهان فى السياق .

(٣) فى النسختين (بعد) ويمكن قبولها لأن الفرق الثانى بعـد جمع الجمع لأجل الفرائض يحدث عند الصلاة ، نحمله (بعدها) .

(٤) فى النسختين (على) وهى مقبولة فى السياق ايضا .

(٥) فى ف (جلده) .

وسكن عندى(١) كل ذلك ، والى سنة (كاملة) لم تعد لى حالتى
ن قــوة الحس(٢) ، كما انــه لم يرد على البتــة شىء يزيد فى حالى
. ينقص منه •

" تم الكتاب "

بعون الله وحسن توفيقه •

---

(١) فى ف (على) .

(٢) فى ف (النعس) ويمكن قراءتهـا (النفس) وسكون الحواس
الأنفاس من امارات التمكين (راجع فصل السكون واسقاط التدبير) من
هذا الكتاب .

الباب الثالث

شُرُوح وَتعليقات

(١)(بداية الطريق : التأدب بشيخ)

يقصد الشيخ « بالتجرد عن الدنيا والا يملك العبد شيئا » لا يصل به أمر التعلق بالدنيا الى البعد عن ربه ، وليس مراده أن يصل الأمر بالمرء الى التواكل والقعود والمسألة ، ولا نتصور أن الصوفية حين يوصون بهذه الوصية يرون شيئا من ذلك والا تناقضوا مع أنفسهم ، لأنه كيف يطلب الى العبد أن ينصرف بكل همته الى الخالق في حين يتاح له أو يجوز له أن يمد يديه للمخلوق •

بقى أنهم يشترطون وجود العمل الذى يتكسب منه الانسان عيشه وعيش من هم فى نطاق مسئوليته •• أيا كان هذا العمل صغيرا أو كبيرا ، المهم أن يكون شريفا والا يشد الانسان الى حبائل الدنيا ، ويقع فى دورات أطماعها التى لا نهاية لها •• وعندئذ لا يأتى منه شىء •

بمثل هذه الروح يجب أن تؤخذ تعاليم الصوفية فى هذا الخصوص ، من أمثال : التصوفه قطع العلائق واليأس مما فى أيدى الخلائق و : الا تملك شيئا أو يملك شىء و : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالذل والايثار ، وترك التعرض والاختيار ••• الخ •

آما ضرورة التأدب بشيخ يوثق فى علمه فهذه حتميــة تفرضــها طبيعة البداية ، فعلم التصوف يمتاز عن غيره من العلوم بأشياء منهـا الاجتبــاء الالهى ، والاســتعداد للبذل ، وضرورة التأدب بشيخ .. ذلك لأن العبد وهو يخوض معارك هذا الطريق فيما بين نفسه الأمارة بالسوء ومن قلبه المشتاق الى مزيد من الحقائق والعرفان يكون أحوج ما يكون الى شيخ يفوقه فى التجربة لأنه سبقه اليها ، ولأنه خاضها بكل مقاماتها وآحوالها ، ولأنه عليم بكل دقائق الرياضات ورقائق المنن ، ولأنه تعلم من آجيال سبقته فى هذا الموقع كيفية مغالبة النفس النزاعة الى النكوص ، وكيفية معالجة المساكنات والملاحظات فى وقتها حتى لا تسد الطريق عليه .

ويواظب الشيخ على توجيه المريد ، ويســهم فى حل مشــاكله ، ويرشده ويلهمه بكل الهمة كأنما يتولى غرسا حتى مراحــل الحصــاد ، أو كأنما يضــع قطعة المعدن فى التنور لتصفو من كل كدوراتها . ويمر الوقت ويصبح الشيخ فى خــاطر المريد القــوة المهيمنه على التوجيه والهداية ، وهكذا يعتاد المرء دائما على تمثل قوة عليا لها سيطرة على ارادته بحيث لو انتهى الى ذاتيته المستقله ــ عندما ينبهه الشيخ الى ذلك ــ يصبح الطموح هو آن ارادة الحق سبحانه هى التى تليها التعويل والفضل .

واذا كنا قد تحدثنا فى مقدمة هذا الكتاب عن ضرورة الاستفادة من « النموذج الصــوفى » لنصلح به مجتمعنا ، فها نحن آمــام ذلك

« الانسان المنتمى » الذى لا يمزقه الضياع ، وتتولاه أعاصير الأفكار الوافدة من شرق ومن غرب لتمزق كيانه • ونحن أمام الانسان « المقتدى » الذى يتخذ له نبراسا يهتدى به •• وما أشد حاجتنا الى كل من الانتماء والاقتداء من طفولتنا وصبانا الى كهولتنا وشيخوختنا سواء كنا حكاما أو محكومين •

ان نظرية الشيخ والمشيخة فى عالم التصوف تعلمنا أنه لا شجرة بدون غارس ، وأن الشجرة اذا نبتت بدون غارس فانها تورق ولكنها لا تثمر •

والشيخ لا يمنح اشارة الاستمرار الا لمن يستحقها ، ويتأخر فى منحها لمن لا يستحقها وهذا أدب لنا جميعا ، لو اتبعنا خطاه وترسمنا ملامحه لما شهدنا قفزا بهلوانيا للانتهازى على أكتاف الأكفاء ، ولعرف كل امرىء أنه سينال استحقاق جهده •• درس آخر يقدمه أهل القلوب للمجتمع المملوء بالأوضاع الزائفة ، التى تورث اليأس والاحباط ، وتصيب جهاز المجتمع بالملل والاضطراب •

على أن هذه النظرية فى المشيخة مدروسة بعناية فائقة ، ففيها حقوق وواجبات للطرفين : الشيخ والمريد ، بحيث تؤلف نموذجا للعقد الاجتماعى الذى يمكن انسحابه على المجتمع بأسره •

فمثلا ينبغى أن يراعى الشيخ — وهو يلقن تعاليمه — أن المتلقين ليسوا على درجات متساوية فى الفهم والتذوق والحماس والطاقة ••

بل فيهم الخامل والعادى والمتوسط والممتاز •• وتلك مسالة يعرفها أهل التربية بالفروق الفردية •••

وتكون التربية بالتدريج لا بالطفرة •• والا أفلت الزمام من يد الشيخ • (واذا رجع المريد الى شيخه بالصدق وجب على شيخه جبران تقصيره بهمته ، فان المريدين عيال على الشيوخ ، فرض عليهم أن ينفقوا عليهم من قوة أحوالهم بما يكون جبرانا لتقصيرهم •

ولا يصح للشيوخ التجاوز عن زلات المريدين لأن ذلك تضييعا لحقوق الله) •

وفى داخل هذه البيئة قد يحدث نوع من العدوى الاجتماعية •• وهنا يدق الشيخ ناقوس الخطر ، فيحذر المريد أن يكون هو نفسه ، لا مقلدا لغيره ، فيختار الفقر ان اختار غيره الغنى ، ويختار الذل ان اختار غيره العز ، وأن يصمت ان أكثر غيره فى اشتهاء الكلام •• والفقر والذل والصمت فى داخل الرباط أولى بالعبد الذى يريد التركيز فى الوحدة حتى يأتى منه شىء •

وفى لطائف الاشارات يضم الامام القشيرى هذه الفئات الدخيلة المريبة على الجو الصوفى الى المنافقين والمرتدين والنهازين الذين دخلوا الاسلام فى بدايته خوفا أو طمعا ، وكان اسلامهم مهددا بالتداعى عند أية بادرة من بوادر الهزيمة أو اشتداد الحرب أو تفكك صفوف المؤمنين •

***

وهكذا يقبل العبد على الطريق راضيا بكل متطلباته وشرائطه ، وعندئذ يأخذ عليه الشيخ العهد بالقبول ، ويتعهد له بالا يدخر وسعا

فى عطائه .. وتكون أوليات التدريب العملى تعويده الذكر باللســان ؛ وخير ما ينطق اللسان فى بداية الطريق الاسـم المجرد « الله الله الله » .

تلك هى اشارة البدء .. وما أعظمها من اشارة !

ولو كانت المسالة هى هذا الترديد اللسانى وحسب لكان الأمــر هينا لينا .. ولكننا هنا بازاء عبد يتدرب على التأمل فى ملكوت السموات والأرض ، كأنما يتابع نبض قلوب منبثة فى أرجاء الكون تسبح باســم ربها ، وتقر بخالقيته وبوحدانيته وبانعامه ، وشــيئا فشــيئا تصبح تأملات العبد أشبه بأصابع تتحسس فى كل جنبات الفضاء والبحــار والأرض والجبال والهضاب والأنهار والنباتات والدواب بحثا عن سر نظامها وعظمة فاطرها ، وشمولية رحمته ونعمته .. وهكذا وهكذا .. الى ما لا يتناهى من التأمل المديد ، والاستغراق غير المحدود .

***

ويوصيه الشيخ بأن يســتمر فى التدرب على ذلك ، والانغماس فيه ، والا يأخذه من هذا الذكر طارىء من طوارىء الدنيا مهما كانت شدته ومهما كان الحاحه . لأن أية ايثاره لهذه الخلوة الذاكرة هى دوبانه فيها بكليته ، فلا تشــويش ولا تشــتيت بل تركيز حــاد فيما هو مقبل عليه من البداية .

ويختم الشيخ هذه الفقرة بوصــية هامة تكفى وحدها لاجتذاب أنصــار للتصــوف من بين أعداء التصوف ، وهى الحاحه على اتباع الشريعة ، فمن الضرورى جدا « اتباع الطاعات وبخاصــة اداء الفرائض والسنن وركعتى الضحى ، وبعد كل وضــوء ركعتين » مــاذا ننتظر أكثر من ذلك ؟

ها هى الشريعة باب للحقيقة ، ولا يمكن دخـــول البيت من غير المرور ببابه ، فما جاء التصوف ليهدم ذرة فى بنيان الحقيقة •

خرست اذن السـنة أولئك الذين يصـفهم ابن حزم بقـوله « قالـوا ان من بلـغ الغـاية القصـوى من الولاية سـقطت عنـه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وحلت له المحرمات كلها من الزنا والخمر وغير ذلك » الملل والنحل ج ٤ ص ٢٢٦

وخرست اذن السنة اعداء التصـوف الذين يتهمون الصـوفية بتفضيل اذكارهم واحوالهم على التدين العام •

هل هناك كلام أشد صراحة من هذا الذى ينص عليه الشيخ فى مقدمة هذا الكتاب ، وهو لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة فى كتاب واحد من كتبه ، فحينما يعالج قضية الحب يقسمه الى نوعين حب عام أساسه الطاعة والاستمساك بأصول العقيدة وأحكام الشريعة ، وأن هذا الحب العام ينمو ليصبح حبا خاصا خالصا هو الحب الالهى ، وبهذا يصبح التصوف ازدهارا للتدين فى وجدان العبد ، بل يصبح التصوف هـو التدين فى أعمق حالاته وأكثرها حيوية ونضارة •

وهو حين يعالج التوحيد عند الصـوفية نراه توحيدا شـهوديا ينبنى على اسقاط الارادة الانسانية والتعويل على ارادة « واحدة هى ارادة الواحد ، وينتج عن ذلك أن التوحيد الصـوفى هو التوحيد الدينى بطريق توحيد الارادة ، وتوحيد الارادة لا يكون الا باخـلاق فاضلة سامية •• فكان توحيد الحقيقة بكلمات أخرى توحيد سـلوك لا توحيد قاله وحسب •

وسنعود الى مثل هذه النقاط فى بقية أجزاء الكتاب ونكتفى هنا بقوله « من ماتت نفسه فى ظلمة غفلته حتى لا احساس له بالأمور الدينية خبثت نفسه ، ومحظور قربه ، وحرام معاشرته ، وغير مباركة صحبته » لطائف الاشارات و (حكى أن أبا الحسين النورى بقى سبعة أيام لا يأكل ولا يشرب ولا ينام وهو يقول : الله الله الله ، فأخبر الجنيد بذلك فقال : أنظروا أمحفوظة عليه أوقاته أم لا ؟ فقيل له : انه يصلى الفرائض فى مواعيدها فقال : الحمد لله الذى لم يجعل للشيطان عليه سبيلا » التحبير فى التذكير تحقيق بسيونى .

(٢)(الذكر وامتداده)

يمكن القول ان ذكر العبد لربه اذا سار على الدروب التى رتبها شيخنا أحدث فى أعماق هذا العبد ثورة تغيير كامل ، ولا نبالغ اذا قلنا أن هذا العبد يصير بعد تلك الرحلة مخلوقا جديدا هو ثمرة هذا الميلاد الروحى النبيل .

ولنرجىء شرح المصطلحات الواردة فى الفقرة .. لأن المهم فى نظرنا الآن هو ترتيب المراحل وتسميتها حسب تدرجها :

(١) ذكر اللسان .

(٢) ذكر القلب .

(٣) غيبة عن الذكر ثم حضور ثم غيبة ثم حضور .. وهكذا .

(٤) تثبت حال الفناء عن الذكر — وهذه هى حال البقاء .

(٥) التردد بين الفناء والبقاء ، والبقاء والفناء .

(٦) ورود الهيبـة على السر ينتج عنه على الفور سكون تام من جانب العبد .

(٧) أذكار تأتي من كل جـوانب الكون لتشـمل العبد فيما بينها ويصبح كأنه وتر فى القيثار الذاكر ذكرا شموليا ، حتى ليعجز العبد عن التمييز بين ذكره وبين ما يشمله .

(٨) ها قد ورد النهر الى البحر ، ولم يعد للنهر حركة الا من لدن البحر .. ان تحرك البحر تحرك وان سكن سكن .

فالسلطان للبارى وحده عز شـأنه ، ان شاء جعل له نورا يمشى فيه ويرى به .

الرؤية رؤية بصيرة كاشفة .

الأنـوار تنثـال .. فيرى مـالا عين رأت ولا أذن سمعت انه الكشف والمشاهدة .

والآن الى المصطلح لنشرحه فى تبسيط شديد :

١ — **الذكر** : ذكر اللسان — وهو أضعف ألوان الذكر مقام من المقامات ، بمعنى أنه جهد انسـانى كسبى ، يمارسـه العبد لتحريك العواطف الصادقة المخلصة الكامنة فى أعماق المرء :

ذكرتك — لا أنى نسيتك لحظة   وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى

هذا الذكر باستدامته ينتج عنه التيقظ ، والتيقظ عند السهروردى أول مراحل الطريق .

وباستدامة ذكر اللسان يصل العبد الى ذكر القلب ، ويظل العبد على ذلك ذاكرا أو تاليا أو مراقبا بحيث لا يشغله عن هذا الا واجب شرعى ، ويرتقى ذكر القلب الى ذكر السر — وسنتحدث عنه بعد قليل •

٣ — **الغيبة والحضور** : الغيبة قد تكون بوارد من تذكر ثواب أو تفكر فى عقاب • أما الحضور فهو غيبه عن الخلق وحضور بالحق حتى يستولى ذكر الحق على قلبه ، ويكون حاضرا بين يدى ربه ، وعلى حسب غيبته عن الخلق يكون حضوره بالحق • فاذا قيل فلان حاضر فمعناه أنه غير غافل عن ربه ولاساه ، وأنه مستديم فى ذكره •

ولكن لماذا الترديد بين هذه وهذه •• السبب يتصل بالأحوال عامة : فالأحوال من الجود الالهى ، وهى تمنح بحسب الفضل الالهى أولا ثم بمقدار ما عليه العبد من نقاء عن الأغيار حتى لو كان تفكيرا فى ثواب أو عقاب ، أو عن ملاحظة نفسه وما أدركته من المنن ، ومساكنة تلك الخواطر بحيث يتحول من خاشع يرجو المزيد الى مدع يستحق التأييد •• ثم ان الشيطان — كما سنرى فيما بعد — قد يتمثل لخاطره ، فتتأخر الأحوال الشريفة فى انعامها انتظارا لنتيجة الصراع بين هذا العبد وبين اللعين •• وهذا هو السبب فى أن الأحوال ازدواجية ثنائية : القبض والبسط ، الفناء والبقاء ، الهيبة والأنس ، الصحو والمحو ••• الى آخر ما نعرف فى باب الأحوال •• بعكس المقامات كالذكر والتيقظ والتوبة والورع والزهد والتوكل والصبر ••• فانها فرادى لأنها مردودة الى مراعاة العبد وجهوده وان كان كبار الشيوخ يرجعون — حتى المقامات — للرب سبحانه ، لأن الانسان وعمل الانسان لا يوصلان وحدهما الى شىء ذى قيمة •

وكلما أغرق العبد فى الأحــوال وارتفع شأنه كلما كانت البشرية متحنسة ، والألوهية متعالية ، فالسلطان للبارى وحده عز شأنه ، والقلب الانسانى بين أصبعيه يقلبه هنا وهناك •

٣ ـــ **الفناء والبقاء** : نستبعد تماما الأقوال الخاطئة التى تنسب زورا للمتصوفة من أمثال الادعاء بقولهم : فناء وجود العبد فى الوجود الالهى ، أو فناء العبد فى الله • ونحو ذلك مما يشعر بتداخل بين البشرية والألوهية • انما الفناء فناء ارادة الانسان وبقاؤه بارادة ربه •

أو الفناء فناء الأوصاف الذميمة وبقاؤه بالأوصاف الحميدة أو فناء الجهل ببقاء العلم ، وفناء المعصــية ببقاء الطاعة وفناء الغفلة ببقــاء الذكر •• وقس على ذلك فكان الفناء والبقاء مرتبطان بمفهوم شعورى أخلاقى ، وليس فيهما مساس بالألوهية معاذ الله •

وهنا ينصرف الفنـــاء الى استيلاء ســلطان الحقيقه على العبد ، بحيث لا يشهد من الأغيار عينا أو أثرا أو رســما أو طللا ، فلا علم له بشىء من حوله ، ولا احساس ولا خبر •

٤ ـــ **الهيبة والانس** : هذه حال شريفة تأتى بعد خطاب عرفانى يكون له عند العبد جواب مثل : أنا الرب أنا الله •

وأنا عبدك خاضع خاشع متذلل بين يديك •

هكذا المناجاة بين المحب والمحبوب ، فاذا انثالت الأنوار وتجلى الحق بالهيبة سكن العبد سكونا تاما ، وامتلأ السر بهيبة المولى سبحانه ولم يعد هناك شىء من العبد لنفسه فى نفسه • فالهيبة والانس يأتيان بعد مراحل من القبض والبسط ، فكان الترتيب على النحو التالى :

الخوف والرجاء ثم القبض والبسط ، ثم الهيبة والأنس • وليس بعد ذلك الا حال التمكين ، لأن أهل التمكين تسمو أحوالهم عن التغير ، وهذه هى الحال التى انتهى اليها القشيرى فى نهاية الكتاب •

وهنا تحتد البصـــيرة الكاشفة ، ويحدث الكشف والمشاهدة كما تلنا فى التلخيص السابق •

***

ولا ننهى هذه الفقرة قبل أن نثبت ملحوظة دقيقة على منهج العلم الصوفى • فالفلاسفة يلتمسون حقائق الميتافيزيقا بعقولهم ، ويقيسون الغائب على المشاهد ، ويرتبون على ذلك أدلة وبراهين لاثبات الصانع بدليل صنعته ، والخالق بدليل خلقه وهكذا حسب ما يسمى بالضرورات العقلية •

أما هنا فيستدل بالله على ما خلق وليس العكس ، لأنه حاضر فى (الحضور) ومشهود فى (المشاهدة) ، فيستدلون به عليه ، لأنه القريب الحبيب •• فالضرورة هنا ضرورة شعوريه ذوقية •

وفى هذا المعنى يتساءل ابن عطاء الله السكندرى :

متى غبت حتى تكون الأكوان شاهدة عليك ؟

الفصل الأول

(٣) (محاذير وعقوبات فى مرحلة ذكر اللسان)

ذكر اللســـان هو بداية لمراحل تاليه فى الذكر ، ومن هنا كانت له مشاكل خاصة ينبغى أن يتفهمها العبد حتى يتم اعداده اعدادا سليما ، لأن الأســباب الصحيحة هى التى تؤدى الى النتــائج الصحيحــه ، والأسباب الخاطئة تؤدى الى نتائج خاطئه اى لا تؤدى الى شىء •

وقارىء القشيرى عن هذه المرحلة وطبيعتها يدرك أن هذا العبد يربى تربية الهية قوامها التشــدد فى التيقظ ، والبعد عن الســوى ، والتركيز فى الوحدة اى فى المذكور ، وأن كل تشويش يدخل على العبد سواء من نفسه يشتت الهمة المكرسة لهذا التركيز • وهــذا هو سبب الحاح الشيخ فى هذا الفصل وفى الفصول التالية على الحث بألا يلتفت الذاكر الآن وفيما بعد وحتى أقصى مراحل الذكر الى اى شىء يأخــذه عما هو فيه وعما يوصل اليه •

وهنا لابد لنا من لفتة هــامة نوضــح بها فرقا حديدا بين المنهج العقلى الخالص فى المعرفة وبين منهج العرفان الصوفى ، فالذى لاشك فيه أن العقل فى غالب الأحيان حينما يتناول شــيئا بالتفكير من اجــل اصدار الحكم انما يفكر فى ذات الوقت فى نقيض هذا الشىء ، بمعنى أننى حينما أتعقل الصدق فانى لا أغترب كثيرا عن التفكير فى الكذب ، فالصدق مهما قيل فيه هو عكس الكذب ، والمعرفة بالصدق تتجلى أكثر وأكثر حينما نتحدث عن الكذب ونفكر فى تعريف الكذب •• وقل مثل ذلك فى البياض والسواد ، والأمانة والخيانة ، والشجاعة والجبن •• ونحو ذلك أما فى منهج العرفان الصوفى فليس ثمة نقيض للوحدة والنقاء

والطهر ومن هنا تتصرف الهمة — ويجب أن تتصرف — الى التركيز فى كل المعانى النبيلة السامية المتصلة بالألوهية •• ولا غير ولا سوى •

ولسوف يتأيد هذا الملحظ الذى ذكرناه الآن فى فصـــل تال حينما يعرض الشيخ لمحاولات الشيطان اقحام نفسه فى خواطر العبد ، وكيف ينبغى طرده فورا ، وكيف يمكن تمييزه عن الأحـــوال الشريفة وطرحه جانبا ••

بهذا الفهم المدرك لطبيعة البداية بذكر اللســـان يمكن أن تؤدى التأملات المصاحبة لهذا الذكر الى ذكر القلب •

ونحن كافة المسلمين مأمورون بهـــذا التأمل فى ملكوت السموات والأرض لندرك أن وراء الخلائق كلها فاطرا لها بديعا فى خلقه ، متوحدا فى شانه ، متفردا فى تنظيمه وتحريكه • وأن هذه الخلائق جميعا تشترك فى اثبات هـــذه العظمة غير المتناهية ، وانها توحد توحيد دلالة — اذا كان الانسان باللسان يوحد توحيد قاله •

فاذا جاء العبد الذاكر وأغرق خواطره فى هذه التأملات — المطلوبة من الكافة — فانه باستمرار تأملاته ، وبطرده لكل معوقات التأمل فانه يلج شيئا فشيئا الى عوالم جديدة أو متجددة ، ينساب فيها الضيـــاء لينير كل شيء •• ليس هذا فقط بل انه يبدأ — كما يقول الشيخ — فى الاستمـــاع الى أذكار وافدة تأتيه من هـــذه العوالم •• ناطقة— كلها بوحدانية الله وعظمته وقدرته •

وبمقدار ما يؤخذ العبد عن نفسه ، ويستغرق فيما يرى ويسمع بمقدار ما يزاد له (المزيد بعد المزيد) حتى ينتهى بـــه الأمر الى ذكر الســـــــر •

ولكى نوضح للقارىء معنى السر •• نقول انه هـــو القلب ولكن بدرجة أعلى صعودا ، وانقى صفاء ، بمعنى أنه اذا كان القلب مشوبا

ببعض كدورات التعلق ، فان الرياضة والمجاهدة والمراعاة تعمل على اخلاء القلب من كل كدر ، فاذا ما تنقى تماما اصبح هو السر .

فالسر ملكة أعلى وأرقى من القلب ، وبالتالى فان وظيفتها على درجة أعلى وأرقى . السر أشبه بالعدسه البصيرية التى تتخصص فى مشاهدة الأنوار الوافدة من عوالم بعيدة ، وسماع الأذكار المتجاوبة مع هذا العبد الفانى فى ذكره وتأملاته .

ومرة أخرى يحذر الشيخ هذا التحذير المتكرر : لا تلتفت الى شىء فان التفت (فقد أسأت الأدب واستحققت العقوبه) ويتم هذا الردع على مرحلتين :

(أ) قطع المزيد ، أى وقف المنن فان استغاث العبد وأناب وعاد الى التركيز المرير فى تأملاته فى خشوع وتذلل ، تلطف الحق سبحانه به وأعاده كرة أخرى الى ما كان عليه .

(ب) أما ان صبر على ذلك القطع .. فمعناه أن قلبه مستعد للجفاء وهنا يحدث تشديد فى العقوبة ، ويتم ذلك بأخذه الى الخلف والرجوع به الى الوراء على مرحلتين تبعدان عن منطقة الأسرار والقلوب وتدنوان من عالم العقل والفكر .

(أ) برده الى حال العلم : فيظن أنه قد أوتى علوم الأوائل والأواخر ، وهو فى هذا التوهم مدع ، والتربية الالهيه تكره له هذا الادعاء ، لأنها تريد له أن يعول على الفضل الالهى وعلى المنن الربانية ، وأن يتخلى عن فكرة أنه يجىء وحده منه شىء . فيجب كسر حدة هذه النفس النزاعة الى الغلواء والزهو .

فاذا أفاق من ذلك ، وندم واستغفر أعيد الى حالة شريفه راقية مثلما كان بها .

أما اذا استمرأ الادعاء فانه :

(ب) يرد الى حال الفهم ، والفهم هو أن ينتابه احساس العالم بأن له علما ، وفى هذا اصرار أشد على الادعاء .. وعقوبته أن يرد الى حال الغفلة ! تأمل كيف يتغلغل الصوفية فى أعماق هذا المنجم الكبير الذى اسمه النفس الانسانية ، وكيف يشخصون آفاتها فى الأغوار السحيقة ، ثم كيف يتابعون تشخيص الدواء لكل داء .

تأمل كيف يحققون بنظريتهم فى المعرفة أن الله سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

تأمل كيف يمكن أن نستفيد من علوم الصوفية فى وضع أساس جديد لفهم كتاب الله الكريم وسنة نبيه عليه السلام .

تأمل كيف يمكن أن نستفيد من علوم الصوفية فى ارساء قواعد لعلم جديد سيفرض نفسه على أرباب العلوم هو : علم النفس الاسلامى .

والآن الى بعض مصطلحات الفصل :

وأهم ما يعنينا هنا :

١ ــ **الواردات** : مفردها الوارد وهو لفظة ترد كثيرا فى كلام الصوفية والوارد هو ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة بشرط ألا يكون فيها تعمد أو اكتساب من العبد ، وقد يكون وارد سرور أو حزن ، وارد قبض أو بسط الى غير ذلك من المعانى المرتبطة بمنن الله وأفضاله .

ويميز القشيرى بين ما يفد على العبد من خواطر محمودة تكون من قبل الحق سبحانه أو من ملك ، وبين ما يخرج اليه من نفسه فيكون هاجسا ، وبين ما يكون من الشيطان فيكون وسواسا .

وسنرى بعد حين كيف يمكن للعبد تمييز ذلك كله بمقتضى مقاييس دقيقة حتى لو تلبس الشيطان ثوبا غير ثوبه اللعين •

ويدقق أبو نصر السراج فى المسألة أكثر من ذلك فيوضح ان بداية الوفود على العبد تكون من البوادى ، فالبادى هو الذى يأتى أولا ثم يتلوه الوارد ، فليس للبادى فعل ولكن للوارد فعل ، اذ هو الذى يستغرق العبد(١) •

٢ ــ **الغفلة** : هى النسيان ، وعلامتها رؤية النفس فى حال العمل ، وهى عندهم ذنب كبير يستغفرون منه ، والحاحهم على طرد هذه الغفلة يدعوهم كما تقول رابعة : « ان استغفارنا فى حاجة الى استغفار » وتعليل ذلك أنه ربما دب فى النفس دبيب خفى أن عملهم قد اوصلهم الى شىء ، ويفترض ان يكون الشعور تاما بان الفضل الالهى هو المسئول الأول والأخير عن منالهم لحال شريفة •

وعلاج الغفلة الاستغفار والندم ، والعودة الى الذكر ، حتى يتم التفرغ التام من كل دعوى وادعاء ، واسقاط كل غير •

٣ ــ **الهمة** : هى ما يملك الانبعاث الى المقصود صرفا ، ويدقق أبو عبد الله الأنصارى الهروى فى الأمر فيقسمها ثلاث درجات :

الاولى : همة تصون القلب عن خسة الرغبة فى الفانى وتحمله على الرغبة فى الباقى •

الثانية : تورث ثقة وأملا فيما هو عن المفقود •

الثالثة : تزرى بالأعواض وتنحو نحو الحق لذاته لا لشىء آخر فى الدنيا والآخرة(٢) •

---

(١) اللمع ص ٤١٨ •

(٢) منازل السائرين ص ٢٢ •

الفصل الثانى

(٤) (القلبُ الذاكرُ)

ما زلنا فى شئون ذكر اللسان ..

ويعاود الشيخ النصح للمبتدىء بأن يحرص الحرص كله على الاستغراق فى هذا الذكر ، منبها اياه ألا يلتفت الى شىء يحول بينه وبين التأملات ، كما يلفت نظره الى أن بعض الانبهارات الأولى قد تخلب لبه وتأسر انتباهه ، وتشده اليها فتبعده عن ذكره ، وآية هذا الابتعاد أنه يشعر بأنه يربو ويعظم ، وأنه قد تفوق على أقرانه ، وأنه قد وصل ... !!

وعقوبة هذا تأتى فى الوقت وهو أن يكون الوارد القادم اليه وعليه فى صورة « قهر من خوف يدهشه » ، وهذه العصا الغليظة — ان صح التعبير — توقفه عند حدود الأدب ، وتعيد اليه صفات التواضع والتذلل والخشية وانكماش الذاتية فيه . وتذكره هذه العقوبة بأنه فى طريق الحق سبحانه ، ولا داعى للتشامخ والتظاهر .. فالطينة اذا ادعت ما ليس لها كان ذلك وبالا عليها .. انما الأمر كله لصاحب الأمر .

فلذا ما تقلصت كل دعاوى النفس ، وذهبت كل امارات كبريائها ، (اصطلم) العبد عن كل شواهده ثم أعيدت له حال أقوى مما كان عليه ، وذلك بعد أن صقلته هذه التربية الالهية ، واستجلب كل جزء فيه لها ، ورغب فيها ، وحرص عليها . ونستطيع أن نتصور مدى عنف هذه التجربة — أثناء ذكر اللسان — والعبد مردد بين مرتبة أعلى ومرتبة

ادنى فى درج الأحوال ، وأن هذا الترديد يتماشى مــع كل نفس وكل ساعة حتى يأتى عليه قهر عظيم ، وعنده ينتقل ذكر اللسان الى القلب • وعلامة حدوث ذلك الانتقال أن يتوقف ذكر اللسان ، وان يبدأ العبد فى سماع الذكر صاعدا من قلبه ، وان هذا الذكر الصاعد يزداد ارتفـاعا شيئا فشيئا ، فيهز كيانه ويتمنى — خوفا مما أصابه سابقا — ألا يسمعه أحد ، وألا يكون هناك غير ، وأن يحيطه الكتمان بأســوار هائلة وفى بقعة نائية بحيث لا يطلع على أذكاره الصاعدة من قلبه انس ولا جن ، وبحيث يبقى وحده متفردا بمــا وصل اليه حتى يضمن الحفاظ عليه ، وعدم النكوص عنه •

والآن الى فهم بعض المصطلحات التى وردت فى الفقرة •

المصطلم : هــو المأخوذ عن الشواهد التى تسبب له التلوين فى احواله كى يصــبح ممكنا ومعــدا لاستقبال مزيــد من المنن دون أن يصيبه تغير •

الهجوم : اما بقبض أو بسط وفى البداية يكون بخوف (كما فى الفقرة) أو برجاء ، وهى أمور ترد بغتة ، فتهز صاحبها وسبيلها السكون ومراعاة الأدب ، فان لهذا الوقت خطرا عظيما ، فقال بعضهم : فتح على باب البسط فزللت زلة » فحجبت عن مقامى « وقال آخر . قف على البساط واياك والانبساط »(١) •

ويفرق الشيخ بين البواده والهجوم ، فالبواده ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة اما موجب فرح او موجب تــرح ، والهجوم ما يرد على القلب بقوة الوقت من غير تصنــع منك • ومنهم من تغيره البواده وتصرفه الهواجم ، ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالا وقوة اولئك سادة الوقت كما قيل :

(١) الرسالة . ص ٣٦ •

لا تهتـــدى نـــوب الزمان اليهـــم
ولهم على الخطب الجليل لجـام •

ومن شواهدهم على حصول ذكر القلب قول رويم أحد سادات الصوفية :

شـــغلت قلبى بمـــا لديك فما
ينفك طـول الحيـاة عن فكـــرى
آنســتنى منـــك بالـــوداد وقـــد
أوحشـــتنى من جميـــع ذا البشـــر
ذكـــرك لـــى مؤنس يعـــارضنى
يوعـــدنى عنـــك منــك بالظفـــر
وحيـــث مـــا كنـــت يامـــدى هممى
فأنـــت منـــى بموضـــع النظـــر

***

ونتعلم من هـــذه التربية الالهيـــة للذاكرين أشياء نافعـــه لنا فى حياتنا :

١ـ اذا كانت شريعة الاسلام فى أصلها تعنى الانقياد لمن يقود والثقة فيه سبحانه ، فانها هنا فى مجال الحقيقة منفذة عمليا وتطبيقيا ، اذ يلزم استبعاد كل توهم بأن العبد يأتى منـه شىء ، وأن الخير كله صادر من المولى سبحانه ، وان أى تدخل من جانب العبد فى تحـويل الأحوال عن مسارها يترتب عليه نسف كل شىء ، واستحقاق العقوبة فى الوقت •

٢ ـ ونتعلم احترام (الوقت) ، وأن كل شىء بتوقيت •

فالصوفى ابن وقته ، بمعنى ان يلزم حدود مـــا أخذ به اليه ، فلا يتحسر على ماض ، ولا يتعجل فى حاضر ، ولا يستبطىء مـــا يأتى به المستقبل •• ان كل شىء بقدر •

(١) الرساله ص ١٩٣ •

٣ ــ أن هؤلاء الوالهين الذين يعيشون أعمارهم حسب كل نفس يتردد ، ويكون كل نفس مرتهنا بالتعبد ينبغى ان يراعوا حدود الأدب ؛ فيلزمهم التواضع والتذلل والخشوع والخشية ؛ والا تشدهم الانبهارات التى تلوح لهم الى اى دعوى أو ادعاء ، بل يجب أن يروا القصور فى أنفسهم على الدوام •• وهكذا تأتيهم الأفضال ، وتنثال عليهم المنن •

نتعلم من هذا الا نغتر بمال أو ولد أو منصب أو جاه أو صحة فى البدن ، وأن نأخذها كلها على أنها ابتلاء واختبار ، فبالرضا ننال المزيد ، وبحسبان أنفسنا أصحاب حق فى هذا واننا نناله بكسبنا وذكائنا فلسوف تهب ريح قاصمة تمصف بكل شىء ، وعلى الباغى تدور الدوائر •

٤ ــ ونتعلم أن فرج الله قريب ، ولهذا اذا أصابتنا مصيبة قابضة يجب أن نستقبلها بالصبر والشكر •• أما ما سببته لنا المدنية الحديثة التى نحن غارقون فيها من يأس واحباط وقنوط وأمراض عصبية تؤدى أحيانا الى أن يقتل الابن أبويه أو الأم طفلها •• ونحو ذلك من جرائم تقشعر لها الأبدان فتلك آفة هذه المدنيه التى غيبت عنا الايمان بالله ،وبتصريفه فى كونه الذى يملكه ، وان غيبة الايمان ولو للحظات كفيل بحدوث الغفلة ، وعند حدوث الغفلة تقع الجريمة ! وهذا هو معنى الذكر من وجهة نظر الاسلام فما بالك بالذكر عند أرباب القلوب الذين يعيشون أعمارهم لحظة بلحظة •

٥ ــ ونتعلم أخيرا أن خير ألوان التربية هى هذا النمط السامى الراقى الذى يربى به الرب عبده المختار لطريقه ، ولو قد استفدنا من هذا النمط التربوى قبسات عجلى لانصلح حالنا فى الدنيا والآخرة •• فهل من مجيب ؟!

الفصل الثالث

(٥)(ذكر الجوارح)

لا عجب أن يجد العبد حركة فى كل جوارحه ، وأن يختلج كل جزء من لحمه وعظمه ــ كما يقول الشيخ •

ذلك لأننا أمام انسان تسرى أشواق الروح فى كل بدنه ، ويتمدد فى داخل كيانه حب كبير ، حب العبد لربه ، ولا يتسع هذا الكيان لمثل هذه العاطفة الممتدة النامية التى تخلقه من جديد •• شخصا آخر •

أرأيته الى الجبل ــ وهو بطبيعة الحال أقوى وأصلب وأكبر من بدن هذا الانسان ، ثم أرأيت الى القرآن الكريم اذ ينزل على هذا الجبل ــ والقرآن هو أسمى آيات الذكر •• ماذا تكون النتيجة « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » صدق الله العظيم •

هذه هى القضية ، وهذا هو مصير الجبل الخشوع والتصدع من خشية الله • وقل الشىء نفسه فى ذكر الجوارح فى بدن هذا العبد الذاكر •

يسرى الخشوع والتصدع فى كل لحمه وعظمه ، وعندئذ تنبعث من الحنايا ــ كل الحنايا ــ آيات الخشوع والتصدع على شكل أصوات مسموعة ، وينطبق كل هذا الانبعاث على كل أجزاء الجسم ما عدا اللسان ــ كما يقول الشيخ •

ذلك لأننا فعلا قد انتقلنا من مرحلة ذكر اللسان الى مرحلة ذكر القلب والجوارح ، وثانيا لأننا بصدد مشكلة فريدة من نوعها •

فالأصل فى اللســان أنه أداة التعبير باللغــة ، واللغــه مقاييس وأوضاع وأصوات ارتضاها المجتمع كى يتخاطب بهــا ، ويفهم الناس بعضهم بعضا بوسيلتها .. أما هنا فنحن أمام حب كبير يملأ القلب ، والطــرف الثانى فى الحب ليس المجتمع ولكنــه المولى سبحانه ، فماذا تفيد اللغة الاجتماعية هنا ، ان العبد بحاجة إلى لغة أخرى ذات أنماط تعبيرية لم تضعها اللغة العادية فى حسابها ، وتترجم هــذه اللغة على شــكل حركات واختلاجات وأصوات وتمايلات ودق للأرض وارتعاشات وزعقات .. وقل ما شئت وانتظر من هذا العبد أى شئ ... المهم أن يكون من داخله صادقا مخلصــا فى توجهه ، وعندئذ تلتمس له العــذر فيما يصدر عنه ، نعم .. انه معذور غاية العذر ، لأن ما أصابه أقوى من أن يحتمله ، ومما يتسرب اليــه أكبر من محتــواه .. وهــو بشر وللبشرية حدود فى طاقة الاحتمال ، فلا ضير عليه ان نمس عن نفســه بحركة ما او بصوت ما .. يقول يحيى بن معاذ وهو من كبار المحبين :

دققنــا الأرض بالــرقص ... علــى غيــب معــانيكا
ولا عيــب علــى رقصــى ... لعبــد هائــم فيكــا

وقد منحت هذه اليقظة الذاكرين رهافة فى الحس بحيث أصبحنا نتوقع أن يكون العبد فى حالة من حالات الحضور ثم يترامى الى سمعه بيت من الشعر ربما ينشده أحد المارة عن غير قصد ، واذا بهذا البيت من الشعر يهز كيان الذاكر هزا عنيفــا ، وربما قضى عليــه فى التو وليست القيمة آنئذ لبيت الشعر بل لهذا القدر من الحضور الوجدانى اللاهف المشتاق .

ولم يسلم من هذه المواقف كبار الشيوخ ، الذين لم يعد الأمر قاصرا على حركات واختلاجات تنتاب أبدانهم بل ربما غشى عليــه ،

أو انخرط في البكاء وقد يصل به الأمر الى ان يصعق ويقضي نحبه كان ابراهيم بن آدهم مارا في بعض الطرق فسمع رجلا يغني بهذا البيت :

كل ذنب لك مغفو　　ر سوى الاعراض عنى

فغشي عليه(١) .

وسمع ذو النون من يقول :

صغير هواك عذبنى　　فكيف به اذا احتنكا

وأنت جمعت من قلبى　　هوى قد كان مشتركا

أما ترثى لمكتئب　　اذا ضحك الخلي بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه ولا يسقط على الأرض(٢) .

والحارث المحاسبى يسمع من ينشد :

أنا في الغربة أبكى　　ما بكت عين غريب

لم اكن عند خروجي　　من بلادي بمصيب

عجبا لى ولتركي　　وطنا فيه حبيبي

فقام الحارث يتواجد ويبكى حتى رحمه كل من حضره(٣) .

---

(١) الكشكول . ص ٧١

(٢) الرسالة . ص ١٧٠

(٣) اللمع . ص ٣٦١

وحين سمع سمنون المحب من يقول :

فليس لى فى سـواك حـظ فكيفمـا شـئت فامتحنى

ان كان يرجو سـواك قلبى لا نلت سـؤلى ولا التمنى

فاصيب على الفور باحتباس البول(١) .

واخيرا يحكى السراج ان سبب وفـاة ابى الحسين النورى وهو من كبار الشيوخ انه سمع هذا البيت وكان فى حالة هيمان :

لا زلت انـزل مـن ودادك منـزلا

تتحـير الألبـاب عنـد نزولـه

فتواجد النورى وهام فى الصحراء حتى وقع فى اجمة قصب وقد قطعت وبقى اصـولها مثل السـيوف ، فكان يمشى عليهـا وهو يردد البيت ، والدم يسيل من رجليه ، ثم وقع مثل السكران فتورمت قدماه ومات(٢) .

ولا ينسى الشيخ ان يلفت النظر الى شغله الشاغل فى هذا الكتاب وهو نهى الذاكر عن ان يلتفت او يلاحظ شيئا مما يجرى له او عليه ، بل عليه ان يركز كل همته فيما هو مقبل عليه ، وان ينغمس بكل الوسع فى المحتوى الشمولى الذى صير به اليه ، واقتيد له .

ان اية مسـاكنة لهذه التجليات العظيمة هى بمثابة ارتداد الى الذات ، تنجم عنها اثنينية غير مطلوبة بالمرة فى طريق الوحدة والتوحيد ، وبكلمات اخرى : غاية الذكر ان يفنى الذاكر فى المذكور ، وكل معوق لهذا فهو قاطع طريق .

---

(١) طبقات السلمى نشر الشرباصى ص ٤٥

(٢) الرسـالة . ص ١٥٢

الفصل الرابع

(٦)(الشّــرب)

الشرب ، والري ، والكاس ، والخمر ، والسكر .. ونحو ذلك من مفردات تكون ما يمكن تسميته بالخمريات الصوفيه .

سؤال يطرح نفسه .. ألم يجد الصوفية لغة أخرى يستعملونها في مثل هذه المقامات الجليلة والأحوال الشريفة ؟

الا يجدر بهم أن يزيحوا عنهم شبهات قد يلصقها بهم أعداؤهم ؟ أليس ذلك مصدرا لقذائف من لهب يصوبها اليهم أهل الشنآن ؟

ويزيد الأمر خطرا أن تصدر هذه الكلمات عن شيخ سني جليل يريد أن يصالح بين الشريعة والحقيقة !

وللجواب على ذلك كله نحتاج الى لحظة هدوء ..

ففي رأينا أن هناك جانبين للقضية .. القضــية الاولى لغــوية والثانية قرآنية . فمن ناحية اللغة .. اننا لو فتشــنا في كل قواميس اللغة عن كلمة نطلقها على الصوفي في حال الفناء لما وجدنا أفضل من كلمة السكر ، ولا أدق من لفظ الشرب . فالعبد غائب عن شــعوره دون أن يحدث مساس في بشريته ، وهكذا يجنبنا استعمال لفظ السكر مشاكل يرفضها الدين الحنيف مثل الامتزاج ، والحلول ، والاتحاد ، وفنــاء البشرية في الألوهية ونحو ذلك مما نجده في تصوفات الأمم الأخرى ، وهي لو اســتعملت هنــا لأعطت مفــاهيم تمس تنزيه الرب سبحانه وتعالى — وهذا مرفوض .

العبد قد تاه فى فنائه بعد أن انقطعت علائقه عن كل شىء حتى عن أى دبيب خفى ينبعث من كيانه الداخلى ــ كما أشرنا ٠

وهو قد استجمع همته كلها فى فكرة واحدة ظلت تكبر وتكبر حتى طغت على كل ما عداها فى حين أن « كل ما عداها مازال موجودا بذاته ، ولكن لا رسم ولا أثر له هنا فى خواطر العبد ، فالتواؤم منعدم بين العالم النفسى للفانى وبين العالم الخارجى المحسوس المحيط به ٠ لأجل هذا نتوقع أن يسقط تمييزه للأشياء ، وأن تتغير حركاته ، وأن تتفلت عباراته ، أو أن يخيم عليه الوجوم التام ، أو أن يصاب بنوبات وارتمادات ٠٠

لا نشك مطلقا فى أن لفظة أو اصطلاحا يصلح لنقل هذه الصورة الفريدة عن هــذا الكائن البــائن ، الكائن هنا هكذا ى عالمنا ، البائن المفترق عن كل عالمنا ٠٠ أصلح من لفظة كالشرب والسكر والمحو ونحوها أما القضــية القرآنية فى هــذا الخصــوص فهى أن الصــوفية قــد تشجعوا وهم يتابعون حديث الخمر والشراب فى مواضع مختلفة من القرآن الكريم ، وكيف يسقى بها أهل الجنة ، وينعمون ، ويتلذذون وكيف يطــاف عليهم بآنيــة مملوءة بهذه الخمر التى لا غــول فيها ولا تأثيم ، وأنهم لا يصدعون عنها ولا ينزفون وأن ٠٠ وأن ٠

لم يجد الصوفية ضيرا فى استلهام معانيهم الخمرية من هذا ، وتشجعوا ــ ومنهم هــذا الشيخ الســنى الحريص المتحفظ ــ على اقتباس أفكارهم فى وصف الرحلة وهى فى قمة مراحلها بهذه الأوصاف ٠

ولسنا فى حاجة الى أن ندفع عن توهمات القارئ أن الخمر هنا وهناك ليست من قبيل هــذه الخمر الانســانية الكثيفــة التى تذهب

بالعقول ، والتى يحرمها الدين ، والتى يقع صاحبها تحت طائلة الحدود التى أقرتها الشريعة •• هذه بديهية لم نكن بحاجة الى التنبيه اليها •

يبقى اذن أنه استعمال لغوى من قبيل المجاز ، سبق به القرآن الكريم وكان ذلك مدخلا للموضوع كله فى علوم أرباب الذوق والشوق •

***

ومع ذلك ••• ولأهمية الأمر نطوف بالقارىء عبر بعض مصنفات القشيرى حتى نستوضح أطراف هذا الموضوع الطريف ، الذى ربما يأخذه لفيف من أعداء التصوف وسيلة للتهجم والتخرص ، واثارة الويل والثبور ، وهدم المعبد على من فيه !

يقول عن تفسيره الاشارى لقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ••• »(١) •

(الخمر ما خامر العقول ، والخمر حرام والاشــارة فيه أن من شرب شراب الغفلة لوجب له البعد عن الحقيقــة ، فمن سكر من خمر الدنيا فهو ممنوع من الصلاة ، ومن سكر من خمر الغفلة فهو محجوب عن المواصلات (= الأحوال الموصلة) ، وكما أن من شرب الخمر وجب عليه الحد فكذلك من شرب شراب الغفلة (= عن ذكر الله) فعليه الحد حيث يضرب بســياط الخوف • وكما أن السكران لا يقام عليه الحد ما لم يفق فالغــافل لا ينجح فيه الوعظ ما لم ينتبه ، وكما أن مفتاح

(١) سورة المائدة ، آية ٩٠ •

الكبائر شرب الخمر ، فان أصل كل زلة وسبب كل ذلة وبعد وحجبة : الغفلة عن الله تعالى « لطائف الاشارات تحقيق بسيونى » .

وفى قوله تعـالى « يطاف عليهم بكأس من معين بيضـاء لـذة للشاربين » يحدثنا عن هذه اللذة التى تناولها كتابنا فيقول :

(شرابا يوجب الطرب ولا وحشـة هناك ، شرابا يحضرهم ولا يسكرهم لأنه قـال : « ولا هم عنها ينزفون » أى لا تزول عقولهم أو تختل ، شرابا لا يزيل عنهم الحشـمة ، ولا يرفع عنهم الهيبة : قوم يشربون بوصف الستر ، وآخرون يسقون فى الحضور وهم على نعت القرب) ويفصل ذلك فى موضع آخر :

(من شرب كأس الصـفاء خلص له عن كل شرب ، فلا كدورة فى عهده ، فهو فى كل وقت صاح عن نفسه خال عن مطالباته ، قائم بلا شغل فى الدنيا والآخرة . ومن شربه كأس الولاء عدم فيه القرار ولم يحب سره لحظة لا بالليل ولا بالنهار ، ومن شربه حال اللقاء أنس على الدوام ببقائه ، فلم يطلب — مع بقائه — شيئا آخر لا من عطائه ولا من لقائه لاستهلاكه عند سطوات الكبرياء) .

و (فائدة الشراب اليوم أن يشغلهم عن كل شىء ، ويريحهم عن الاحساس ، ويأخذهم من قضايا العقل) .

و (من سقاه اليوم شراب محبته آنسه وشجعه فلا يستوحش فى وقته من شىء ، ولا يضـن بروحه فى بذلها بشىء ، ومن مقتضى شربه بكأس محبته أن يجود على كل أحد بالكونين من غير تمييز ، ومن آثار شربه : تذلله لكل أحد لأجل محبوبه ، فيكون لأصـغر الخدم تراب القدم ، لا يتحرك فيه للتكبر عرق) .

ولكن هل يصدر عن الشارب شيء يؤخذ عليه ؟

(من مقتضى ذلك الشراب أن يملكه سرور ، ولا يتمالك معه من خلع العذار والقاء قناع الحياء ، واظهار ما هو عليه من المواجيد) .

ولكن (من كان صادقا فى توجهه كان محفوظا فى تكلفه) .

بمعنى أن يلزم حدود الأدب ، وأن يحترم ما هو عليه فى الوقت ، والا يخرج عنه ما يسيء اليه ، وقد سئل الجنيد فى ذلك فأجاب « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » وهذه حال المتمكنين .. ويزيدها القشيرى توضيحا بقوله :

(علامة صفاء الشرب صفاء المعاملات ووفاء المنازلات ، ودوام المواصلات والا لما حصل بعدئذ الرى) .

ومعنى العبارة الأخيرة التزام العبادة ، وأداء الشريعة ، والوقوف عند الاحتشام .

وسنتناول قضية الافصاح والكتمان فى موضع لاحق ان شاء الله تعالى .

***

وينهى الشيخ هذا الموضوع بوصفه لهذه اللذة العاتية التى تصطلم العبد ، حتى أن المبتدئين يهربون منها الى الخلائق لعدم قدرتهم على احتمال تبعاتها ، فهى ليست لذة ممتعة للأبدان لأنها معتقة للأرواح ، انها لذة الخشية والرهبة .. وسبحان ربى وهو يجمع النقيضين ! ومن آيات هذه اللذة كما يقول شيخنا أن « يحتد بصره وبصيرته حتى كأنه يسمع أقدام النمل » .

هذه هي الشفافية المرجوة في هذه المرحلة ، فالمرآة مجلوة تنعكس عليها صور الكائنات صغيرها وكبيرها . والسمع مرهف لأن كل شيء في هذا العبد أصبح أذنا صاغية تتسمع تسبيح الكون ، وهل كل من في السموات والأرض الا وغارق في التسبيح .. « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

هنا بهذه الشفافية يحدث فقه التسبيح ، فقد انجابت كل الموانع والعوارض وأصبح العبد وجها لوجه أمام كائنات ذاكرة لله ، منشدة لفردانيته وخالقيته وعظمته !

الفصل الخامس

(٧) (حَال جَمْع الجَمْع)

النفس مركز المملولات ويجب الانتهاء من المعركة بينها وبين القلب مركز المحمودات ، فاذا بقيت فى القلب من آثار تلك المعركة بعض الكدورات فان المجاهدات والرياضات واستدامة الذكر •• كل ذلك كفيل — بمشيئة الله وفضله — بان ينقى القلب فيصعد فى المعراج التدرجى الى منطقة الروح ، وهى مكمن الحب ، وعندها يكون ذكر الجوارح كما أسلفنا •

وهنا يصل بنا الترتيب التصاعدى الى منطقه السر ، والسر وديعة ربانية لدى العبد ، وبه وفيه تتم أشرف الأحوال وأسماها ، وهى حالة جمع الجمع •• وقبل أن نوضح دلالتها نشرح أولا معنى الجمع ، وخلاصة القول فيها أنها تقابل الفرق ، فما كان من العبد فهو فرق ، وما كان من المنن الالهية فهو جمع •

يكون من العبد تواصل العبودية والذكر وكل ما يطلب من أحوال البشرية من تذلل وخشوع وابتعاد عن الملاحظه والمساكنة ، والدعوى والادعاء ونحوها وهذا هو الفرق •

ويكون من الجناب الالهى ابداء المعانى واسداء اللطف والاحسان •• وهذا هو الجمع • ولابد للعبد من كليهما « فمن لا تفرقة له لا عبودية له فقوله : اياك نعبد اشارة الى الفرق وقوله : واياك نستعين اشارة الى الجمع » الرسالة ص ٣٨

وهناك فرق بين من يرى الأعمال من نفسه وبين من ينسبها الى المولى سبحانه ، ويدرك الذاكرون فى هذه المرحلة معنى قول شيوخهم : فرق بين من يقول بجهدى أعبدك وبين من يقول بفضلك ولطفك أتقرب اليك .

أما حال (جمع الجمع) فهى فوق هذا : « فمن أثبت نفسه وأثبت الخلق ولكن شاهد الكل قائما بالحق فهذا جمع أما اذا كان مختطفا عن شهود الخلق مصطلما عن نفسه مأخوذا بالكلية عن الاحساس بكل غير بما ظهر واستولى من سلطان الحقيقة فذاك جمع الجمع . والتفرقة شهود الأغيار لله عز وجل . فجمع الجمع حالة عزيزة تؤدى الى الاستهلاك بالكلية وفناء الاحساس بما سوى الله عز وجل عند غلبات الحقيقة . وعند هذه الحالة يحدث نوع من الفرق الثانى فيه يرد العبد الى وعيه لأداء الصلاة والفرائض ثم يعاد الى ما كان عليه » الرسالة ص ٣٩ (أنظر آخر هذا الكتاب) .

***

ويكون المناجاة بين العبد وربه .

وفى البداية يكون دعاء واستغفار .. فيأتى خطاب باللطف

والاحسان . ولهذا الخطاب جواب .. وهكذا ، حتى يأتى وقت تستولى فيه غلبة الجمع على العبد فلا يستطيع تمييزا بين ما هو وارد اليه وبين ما هو صادر منه ، فاذا انطلق تعبير لسانى — عفوا من العبد فربما أيقع السامع — الذى لا يتفهم ولا يتذوق مثل هذه المواقف — فى حيرة واندهاش ! ويكون السكون التام عند تجلى الهيبة .

والله سبحانه يحفظ عباده الصادقين من التعرض لمثل هذه المواقف حتى لا يفتتن بأصــفيائه ، وحتى لا يحدث من الحرج ما يعرضــهم للأذى .. اذ يقل فى الناس من يفقهون تسبيح الواصلين . وكان خيرا للمتربصين أن يقرنوا بين هذا التسبيح الصادر عن عبد له ارادة وبين بقية الكائنات التى تسبح بحمد الله آناء الليل وأطراف النهار ولكن دون أن ندرى أو ندرك أسرار ولغات هذه الكائنات .

وليس من فرق بين الحالين الا أن العبد موحد توحيد حــالة ، والكائنات موحدة توحيد دلالة .

الفصل السادس

(٨) (حينما يقتحم الشيطان حضن أرباب الأحوال)

نعرف من تجربتنا أن الشيطان قد يتسرب الى خواطرنا اذ نحن نؤدي الصلاة ،وقد ينجح فى تشتيت افكارنا أثناء هـذه الصلاة مهما ألححنا على طرحه وطرده ، وكما تحتاج الصلاة الى تركيز شديد حتى ندرك معانى ومقاصد ما نقوله أمام الرب سبحانه فى ركوعنا وسجودنا حتى يكون لنا فى النهاية ما وصفه الرسول الأعظم صلوات الله عليه وسلامه بقوله : « ليس لك من صلاتك الا ما عقلت منها » كذلك يحتاج الذكر ـ حتى فى أقصى درجات الفناء فيه ـ الى تركيز تام ، وقد نبه القشيرى قبل ذلك الى آفات النفس التى قد تعوق ذلك ، وكرر هـذا التنبيه مرارا ، ولكنه هنا يخصص فصلا مستقلا لزعيم قطاع الطريق • الشيطان !

وأرى أن هذا الفصـل مكتوب بطريقة ممتعة تنبنى على تحليل نفسى دقيق بحيث يصلح أن يقدم لشبابنا فى المدارس والمعاهد نموذجا للنثر الأدبى الفنى الاسلامى •• فضـلا عما له من قيمة فى تربيتهم الروحية • وقبل أن نعايش نص الكتاب علينا أن نضع بين يدى القارىء مقدمة نراها مفيدة له :

اولا : كيف نفرق بين هاجس يأتى من النفس وبين وسواس يأتى من الشيطان ؟

يجيب الجنيد ـ سيد الطائفة ـ على ذلك بقوله : « ان النفس اذا طالبتك بشىء الحث ، فلا تزال تعاودك ولو بعد حين حتى تصل الى

مرادها ويحصل مقصـــودها • اللهم الا أن يدوم صـــدق المجاهدة • ثم انها تعاودك وتعاودك • وأما الشيطان فاذا دعاك الى زلة فخالفته بترك ذلك فانه يوسوس لك بزلة أخرى لأن جميع المخالفات له سواء ؛ وانما يريد أن يكون داعيا أبدا الى زلة ما ، ولا غرض له فى تخصيص واحد دون واحد » الرسالة ص ٤٧

ثانيا : ما حقيقة دور الشيطان فى نهاية الأمر ؟

ينظر القشيرى الى القضية باعتباره متكلما أشعريا ، ويذهب فى ذلك الى أن الله سبحانه خـــالق كل شىء ، وكل شىء فى نظره يشـــمل الانسان وأكساب الانسان ، فاذا أراد زينا للعبد كان بها ، واذا أراد غير ذلك كان بها أيضا •• اذا لمـــاذا خلق الله الشيطان ؟ وكيف يحمل الانسان وزر ما يصنع الشيطان به اذا كان كل شىء مرجعه الى الله ؟

يجيب الشيخ عن ذلك بقوله فى لطـــائفه : « فقد خلقه ــ أى الشيطان ــ ولكن جرده من النفوذ ، فقال سبحانه « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » • فهو عاجز عن مضرتنا ، لأن الحق هو الذى يوصل الينا مضرتنا ولو كان الشيطان قادرا على اغواء الخلق لكان يمسك على الهداية نفســـه ، ومن عجز أن يحافظ على نفســـه كان فى اغواء غيره أشد عجزا » •

ويواصل الشيخ رأيه فى موضع آخر من لطائفه فيقول :

ان كل عمل الشيطان هو الوسوسة فى صدور الناس ، ولكن ليس فى حوزته ولا فى سلطانه أن يكرههم على شىء • قال تعـــالى « ربنا ما أطغيتـــه » أى مـــا أكرهتـــه على كفره ، ولكن فعـــل باختيـــاره ما وسوست له •

وهكذا نجد القشـــيرى المتكلم يعود الى اختيار العبد ، ويحصر نطاق عمل الشيطان ، ويرد كل شيء فى النهاية الى الله فما أصابك من حسنة فمن الله) فضلا ، (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) كســبا وكلاهما من الله سبحانه خلقا • (القشيرى المتكلم : بسيونى) •

***

نلخص ما جاء فى الكتاب فى هذا الموضوع على النحو التالى :

١ ــ يتلبس وســواس الشيطان بخواطر الحق حتى ينصرف العبد عما هو فيه ، ويظل لفترة فى حيرة وارتياك • المقياس هنا هــو عرض الأمر على الشريعة ، والأمر والنهى •

٢ ــ الشيطان لا يأتى على حقيقته بل يلجأ الى التزيين الزائف والمقياس هنا •• القلب الذاكر يلفظ ويرفض كل ما يوجهه حتى لو كان التزيين براقا خلابا •• كالأمر بالحج أو طاعة الوالدين •

٣ ــ يأتى الشيطان ضمن الأصوات الجميلة المسموعة ، وتكون لصــوته حلاوة قــد تفوق حلاوة الأصــوات الشريفــه ولكن القلب لا يستأنس بها بل يستوحش وينفر •

٤ ــ عندما يكون القلب خاليــا أو غير ممتلىء تماما بخــواطر الحق فقد ينجح الشــيطان فى الظفر ، وتكون له الغلبة • أما اذا كان عامرا بخواطر الحق •• فان المقياس هنا للرفض هو عــدم المشاكلة بل الضــدية ، وعــدم الأنس بل الوحشــة ، وعــدم الانسجام بل السماجة والنشوز •

٥ ــ واذن يبقى أن العــلاج الوحيد لمشكلات العبد فى هــذه المواقف هو الاستعاذة واستدامة الذكر ، حتى يكون لديه رصيد كاف

يقف سدا منيعا أمام هذا العدو اللعين المتلصص الذى يتسور جدران حصن مصلبيه للأحوال الطيبين له ، بحقيقته .. وليمنح منه — على الأقل — وقفة مرتبكة تصده عن التقدم ولو لخطوات أو للحظات .. ولكن هيهات .. فلا يحيق المكر السيء الا بأهله ، وهكذا يرتد اللعين الى جحره خائبا حسيرا . فان صاحب الأحوال قد أبلى فى التيقظ والتأمل والفناء فى المذكور بلاء حسنا ، ولن ينال منه الشيطان حتى لو استجمع كل نعومة الأفاعى وطراوتها !

وسيبقى العبد عائشا متمتعا فى مهرجان الذكر الذى تتجاوب فيه — مع أناشيد قلبه — جوارحه والكون من حوله .. وهذا هو الفرار الى الله سبحانه ، الكفيل بالنجاة من كل طاغوت !

الفصل السابع

(٩)(السكون وإسقاط التدبير)

● أصيبت ساق أبي الخير الأقطع المتوفى سنه نيف وأربعين وثلثمائة بالغرغرينا وأوصى الأطباء بقطعها ، فأشار تلامذته أن تجرى له الجراحة وهو فى غلبات الذكر .. وهكذا تمت دون أن تخرج منه آهة واحدة .

● ويقول سيد الطائفة الجنيد سماعا عن السرى السقطى : ان العبد يبلغ فى الذكر الى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر « الرساله ص ٣٦ » .

● وفى مجلس سماع قام الناس وقعدوا ، وأما الجنيد فبقى هادئا ساكنا فلما سئل فى ذلك قال : وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » .

وهكذا نرى أن غلبة الذكر على أهل التمكين تقتضى السكون ، والسكون كما قلنا من قبل هو جواب السر على خطاب الهيبة . فان تمكن العبد هكذا انثالت عليه الفيوضات ، وغمرته الأنوار : فهذه كلها ثمار التوحيد ، بمعنى أن العبد الذى أسقط تدبيره وبقى بتقدير مولاه قد استسلم أخيرا .. ولم يعد هناك الا ارادة الواحد لتتصرف فى الموحد . وتلك غاية سامية لا يصل اليها المرء الا بعد جهاد ونضال ربما استغرقا كل سنوات عمره ولهذا ينصح الشيخ من دخل فى طريق الارادة بأن يلازم السكون والا يتحرك فيه جزء منه ويكون أشبه بالجثة الهامدة الملقاة فى البرية ، تهجم عليها الطيور الوحشية بمقدار ما ترى فيها من فقدان الحركة والنفس !

●●●

وينهى الشيخ هذه الفقرة بأن الأحـــوال ــ خلافا للمقامات ــ تأتى من عين الجود ، فليست جهودا كسبية كما أسلفنا ، ويطللها تعليلا طريفا بأنها لو كانت من اجتلابه واكتسـابه لما صبر عليها ،ولكنهـا من قوة عليا خارجة عنه ، تفرضها عليه شاء أم أبى •

ذلك هو الاستسلام ، وهذه هى أصول هذه التربية الالهية ، ولأنها كذلك ولأنهـا تؤدى فى النهاية الى ذلك فان العبد يصعب عليه كثيرا أن يغادر خلوته ، أو يبتعد عما هو مأمور فيه ، وان مجرد حصول ذلك لعلامة لخير كثير أنه قــد أصــبح مرادا بعد أن كان مريدا ، وأن الاجتبــاء الالهى له فى الابتداء قد بات يعطى حصاده فى الانتهــاء • فعليه ــ أراد أو لم يرد ــ الا ينصرف عما صير به اليه •

(١٠)(مطاردة النوم والغفلة)

هؤلاء قوم وصفهم القرآن الكريم بقوله « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا » .

هؤلاء قوم أحبوا وأرادوا الملازمة لهذا الحب ، ولما أوردهم الحب مواردالللطف والرحمة والعناية ، وأطلعهم على أنوار العرفان وجدوا النوم أكبر عقبة تصـــدهم عن هذه الملازمة ، فهم بشر قبل كل شيء ، والنوم لأبدانهم سبات وراحة ، ولكن الحب الجارف الذى ملأ قلوبهم لقـــوى من بشريتهم ، فقد ولدوا ميلادا جديدا .. انها حقا مشكلة . وهذا الذى ذكره الشيخ من جلوسه على حجر ناتيء معلق فى الهـــواء بين فضــــاء شـــاهق وواد ســحيق هو محـــاولة لتبديد جيوش النوم اذا ما أطبقت عليه من كل جانب .

وقل الشيء نفسه فى محاولات أمثاله من الشيوخ ، وقد يتبادر اليك احساس بالرثاء الشـــديد لسمنون المحب الذى كان يجلس على شـــاطيء دجلة وبيده قضيب يضرب به فخذه — اذا غافلته سنة من النوم حتى بان عظمه وتبدد لحمه وهو يقول :

كان لـــى قلب اعيش بـــه ضـــــاع منى فى تقلبــــه
رب فاردده على فقـــــــد ضـــــاق صـــدرى فى تطلبه
واغث مادام بــى رمـــــق ياغيـــاث المستغيث بـــه(١)

ولكن .. لا عليك من هـــذا الرثاء لهذا المحب ، فانه يعيش فى أقصى درجات السعادة مع محبوبه ، و لايريد أن تمر لحظة دون أن يعب من كأس محبته .

---

(١) طبقات السلمى ص ١٩٠ وطبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٩

ثم استمع الى ما يقصه أبو مقاتل المكى حين دخل على الشبلى فوجده ينتف الشعر من حاجبه بمنقاش فسأله : يا سيدى أنت تفعل هذا بنفسك ويعود ألمه فى قلبى • فاجابه : ويلك •• أنا أدخل الألم على نفسى حتى أحس بما يستتر عنى •

وينشد أحد الوالهين فى حب مولاهم :

هجرت الورى فى حب من جاد بالنعم
وعفت الكرى شوقا فلم أنم(١)

وينشد ذو النون واصفا المعركة مع النوم فى منتهى الدقه :

أعميت عينى عن الدنيا ورؤيتها
فأنت والروح شىء غير مفترق
اذا ذكرتك وافى مقلتى أرق
من أول الليل حتى مطلع الفلق
وما تطابقت الأجفان عن سنة
الا رأيتك بين الجفن والحدق(٢)

ويروى أبو الحديد :

أهابك أن أقول هلكت وجدا
عليك ، وقد هلكت وجدا
ولو أن الرقاد دنا لطرفى
جلدت جفونها بالدمع جلدا

(١) صفة الصفوة ج ١ ص ٢٢٣
(٢) صفة الصفوة ج ٤ ص ٣١٣

وهكذا يتصـــل الليل بالنهار والنهار بالليل ، وتتم دائرة الزمان حول هذا الذاكر ، فلا يستطيع التمييز بينهما لغلبة الأنوار الرائعـة عليه :

يقول السرى السقطى :

لا فى النهـــار ولا فى الليل لى فرج
فما أبالى اطـــال الليـــل أم قصرا
لانى طـــول ليلى هـــــائم دنف
وبالنهـــــار آقاسى الهـــم والفكـــرا

وينشد سمنون فى ذلك :

أحـــن بأطـــراف النهـــار صــــبابة
وفى الليل يدعـــونى الهـــوى فاجيب
وأيامنـــا تفنى وشـــــوقى زائـــــد
كأن زمـــان الشـــــوق ليس يغيب

الفصل الثامن

(١١) (تنبيه للمُبتدئين)

● لم ينس الشيخ وهو يقترب من قمة النهاية فى ترتيب السلوك أن ينفح أهل الابتداء من المريدين نصيحة غالية ، فهو يعلم بحكم تجربته أن بعضهم قد ترك الطريق حينما اجتهد ثم لم يجد على الفور ثمرة اجتهاده دانية القطوف ، فأراد أن يعرفهم بأن طبيعة هذا الطريق ابتلاء وامتحان من البداية الى النهاية :

ومن تحلى بغير ما هو فيه   فضحته شواهد الامتحان

فعليهم أن يصبروا ويثابروا .. فتلك سنه أجزاها المولى سبحانه على أرباب القلوب ، وهم بهذا أرباب استدامة لذكر الله ، وأرباب ثقة فى أن الأرض الموات سرعان ما ينهمر عليه المطر فتنبت من كل زوج بهيج .

استمع اليه وهو يهمس فى آذان المريدين منبها فيقول لهم من واقع تجربته « وهكذا كنت فى الابتداء .. كنت كلما ازددت جهدا ازداد الشيء المقصود عنى بعدا » .

ثم استمعوا الى هذا المربى العظيم وهو يدفع الاحباط واليأس عن المبتدئين فيفتح عيونهم وبصائرهم على الآفاق الرحبة التى تنتظرهم فيقول على الفور فى السطور التالية متحدثا عن النهاية :

« حتى وصلت فى النهاية الى موضع كنت أرى فيه بنفاذ البصيرة جميع المخلوقات ، وذلك عندما تظهر أنوار الحق على السر » والمعنى أرى جميع المخلوقات تلتمسة بتوحيد الله سبحانه توحيد دلالة ـ كما سبق أن ذكرنا .

● ونصل الى الاستفادة فى هذه الفصول الأخيرة من الكتاب الى صياغة جديدة فى الشروح والتعليقات ، وذلك بأن نكثر من نماذج الشعر الصوفى التى جاءت على ألسنة الشيوخ ، وهو شعر جميل ليس فيه تعقيدات ، وشعر صادق ليس فيه زيف .. وقد تعمدنا أن نأتى به الى هنا حتى نثبت للقارىء صلة التصوف بالفن ، وكيف استطاع الشعر بلغته العاطفية النابضة أن ينقل الينا هذه التجربة .. لعل شبابنا يشغفون بالمزيد من قراءة هذا الشعر الجميل الجليل .. ولهذا سنترك القارىء يصاحب هؤلاء الصوفية الشعراء دون تدخل من جانبنا الا عند الضرورة :

انهم عطاش الى المزيد من منته ، ولكنه سبحانه يعطشهم الى وصاله : يقول ذو النون : « الله يعطش صفيه ، والعبد متلهف على الرى ، وفى ذلك ينشد سمنون بن حمزة :

أنت الحبيب الذى لاشك فى خلدي

منه ، فان فقدتك النفس لم تعش

يا معطشى بوصال أنت واهبه

هل فيك راحة أن صحت يا عطشى(١)

(١) طبقات السلمى ص ١٩٨

ويقول النورى فى حالى التجلى والستر :

اذا تغيبت بـــــــدا وان بـــــدا غيبنـــى(١)

ولهذا يتركون له مشيئة التصرف ، فكل ما ياتى به الله فهو خير وصلاح :

فان شئت واصلنى وان شئت لا تصل
فلست ارى قلبى لغيرك يصـــلح(٢)

ويقول ذو النون فى المعنى نفسه :

فســـنا كيف شـــئت ولا تكلنـــا
الى تبريرنـــا ياذا المعـــالى(٣)

وتقبل الأنـــوار بقدر ، وتتجمع سحب الغيث مبشرة ولكنهـــا لا تجود ، فيشتد العطش ، ولكن لا يزحف الياس ، يقول الشبلى :

اظلت علينـــا منك يومـــا غمامـــة
اضـــاءت لنابرقا وابطا رشاشـــها
فلا غيمها يجلـــو فيايس طـــامع
ولا عيشها ياتى فيروى عطاشـــها

(١) اللمع ص ٤١٦
(٢) تاريخ بغداد المجلد التاسع ص ٢٣٧
(٣) اللمع ص ٣١٨

(ذكر هذان البيتان فى اللمع ص ٣٢٢ وهما منسوبان فى الأغانى ج ٣ لبشار وفى النجوم الزاهرة ج ٥ لمهيار) •

والنتيجة انهم يعانون على الدوام ، وحتى عند اللقاء والبسط يتفكرون فى الفراق والقبض :

يقول جعفر الخلدى : « تفكرى فى مرارة البين يمنعنى من التمتع بحلاوة الوصل ، وتكره عينى أن تقر بقربك مخافة أن تسخن ببعدك ، فلى عند الاجتماع كبد ترجف ، وعند التنائى مقلة تكف وأقول كما قال الشاعر :

وما فى الدهر اشقى من محب
وان وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيا فى كل حين
مخافة فرقة او لاشتياق
فيبكى ان نأوا شوقا اليهم
ويبكى ان دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التنائى
وتسخن عينه عند التلاقى(١)

وهذا الحب الكبير قادر على جمع المتضادين فى القلب الواحد ؛ وفى ذلك يقول أبو العباس بن عطاء :

(١) اللمع ص ٣٠٩

جمعت شــيئين فى قلبى لــه خطــر
نوعين ضــــدين : تبريــد وتلهيب
نار تقلقنى والشـــوق يضرمهـــا
فكيف يجتممـــان ؟ روح وتعذيب

وهذا المزج بين الضدين يسبب العناء ، ويتطلب المكابدة ودوام الذكر حتى يكون الشراب صافيا لا خلط فيه ، يقول الجنيد :

مـــــالى جفيت وكنت لا اجفـــى
ودلائـــل الهجـــران لا تخفـــى(١)
وآراك تســــــقينى وتمزجنــــــى
ولقـــد عهـــدتك شـــاربى صرفـــا

ان العبد يعود باللائمة على نفسه ، ويعد نفسه المسئول عن هذا المزج والتضاد ، فحاشاه أن ينسب التنغيص الى غير ذاته ، لأن المحبوب أقرب اليه وأعرف به ، وهنا يعود الذاكر الى ذكره ، فيصل ليله بنهاره حتى ينجح فى هذا الامتحان العسير ، يقول سمنون :

ضـــاعف على بجهـــدك البلــوى
وابلــغ بجهــدك غايــة الشــكوى

(١) اللمع ص ٣٠٩

واجهــد وبالــغ فى مهاجــرتى
واجهــر بهــا فى السر والنجــوى
فاذا بلغت الجهــد فى فلــم
تتــرك لنفســك غايــة قصــوى
فانظر .. فهــل حــال بى انتقلت
عمــا تحب بحــالة آخــرى

ويقول :

أنــا راض بطــول صــدك عنــى
ليــس الا لأن ذاك هــواكا
فامتحن بالجفــاء صبرى على الود
ودعنــى معلقــا برجــاكا

***

تلك هى تجربة هذا الحب الكبير ، قــد يبذل العمر كله فى سبيلها ووقفا عليها ، ولكن ثمارها العظيمة تستحق مـا هو أطول من العمر .

أليست فى جوهرها انتصار للانسان ؟!

وهذه هى شمس الشموس طالعة أبدا فى برج العلاء ، فهل هناك أروع من مشاهدتها والانغمار فى أنوارها ؟

الفصل التاسع

(١٢) (نهايات الأحوال)

هنا نصل الى منطقة الصفاء التام ٠٠

ينبغى أن تختفى الشواغل حتى لو كانت مجرد أمنية بالحصول على ملعقة من السمن فى ليلة العيد ٠

الصفاء التام فى خواطر اليقظة والنوم ، لنمى الرؤيا — هى الأخرى — مرجوة فى التنعم بالأحوال والكشوفات ٠

الصفاء التام فى رابطة التواصل التى بين الأستاذ والشيخ ، وبحيث يرى الشيخ خواطر تلميذه ، وبحيث يطلب منه فى لحظة بعينها أن يجلس على حجر ويردد الذكر ، وتتفتح كوى الضياء ،وتنثال على التلميذ الأنوار ٠

الصفاء التام بحيث تتم الأذكار فتؤتى ثمارها فى الوقت ، أى تبدأ من ذكر اللسان فذكر القلب فذكر الجوارح فذكر الكون فذكر السر ٠٠ كل ذلك فى لحظات ، مع أننا قد رأينا من قبل أنها أمور ربما لا تتحقق الا فى سنوات ، ولكن — التواصل الحميم بين الشيخ وتلميذه أوقفه — بارادة الله — على أن اللحظة مناسبة ، فجاء الأمر بالابتداء وكانت النهاية على المرام ٠٠ وتلك كرامة من كرامات الشيخ ٠٠ نعم كانت النهاية هى الخلوص التام لذكر الله آناء الليل وأطراف النهار ، ولم

يتوقف هذا الذكر الا فى مرحلة الفرق الثانى حين جاء موعد الصلاة ، فأعيد العبد الى كل الوعى بنفسه حتى يتم ما فرض الله عليه ، ثم أعيد به الى ما كان عليه من جمع الجمع • وعند الصلاة فكر الشيخ فى حمل تلميذه — وهو على قدر من الوعى بنفسه — الى القريه •

أما التلميذ فقد صار بدوره شيخا ، لقد وصل به السكون التام انتظارا لمزيد من الأحوال ، ولكن لم يرد جديد عليه ، لأنه قد وصل فاتصل ، وتلك نهاية الترتيب : وهى حال التمكين •• لم يعد جديد فى الأمر اللهم الا ازدياد تحول البدن يوما بعد يوم •

لأجل هذا نرانا — اتماما للفائدة أن نتحدث عن بعض النقاط الهامة المتصله بهذا الموضوع :

(ا) تعريف بالشيخ ابى الحسن

أشرنا عند ترجمة القشيرى فى صدر هذا الكتاب الى علاقته الوثيقة بشيخه وملهمه ومثله الأعلى صهره أبى الحسن على الدقاق ، وكيف كانت صلته به نقطة التحول الأساسى فى حياته ، ثم كيف كان له من الشفافية بحيث يحدثه عن خواطره الدفينة • ولا يكاد اسم الدقاق يغيب عنك فى كل مصنفات القشيرى ، مقرونا بألقاب : الأستاذ ، والشيخ ، والشهيد •• ولهذا وجب علينا أن نعطى القارىء هنا فكرة مقتضبة عن سيرة هذا الشيخ العظيم لأنه الشخصية المحورية فى الفصل الأخير الذى نحن بصدده من كتابنا هذا •

يقول عنه عبد الرؤف المناوى صاحب (الكواكب الدرية فى تراجم الصوفية) ، هو أبو على الحسن الدقاق النيسابورى الشافعى ، كان

لسان وقته ، وامام عصره ، فارها فى العلم ، محمود السيرة ، مجهود السريرة ، جنيدى الطريقة ، سرى الحقيقه . آخذ مذهب الشافعى عن القفال والحصرى وغيرهما ، وبرع فى الأصول ، وفى الفقه ، وفى العربية ، حتى شدت الرحال فى ذلك .

ثم آخذ فى العمل ، وسلك طريق التصوف ، وآخذ عن النصراباذى . قال ابن شهبة : وزلد عليه حالا ومقاما . وعنه آخذ القشيرى صاحب الرسالة ، وله كرامات ظاهرة ، ومكاشفات باهرة . قيل له لم زهدت فى الدنيا ، قال : لما زهدت فى آكثرها آنفت الرغبة فى آقلها . ومن آقواله أيضا : من علامة الشوق تمنى الموت على بساط العوافى فيوسف لما آلقى به فى الجب ولما آدخل السجن لم يقل توفنى . ولما تم له الملك والنعمة قال : توفنى . وكان كثيرا ما ينشد :

آحسنت ظنك بالأيام اذ حسنت
ولم تخف شر ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها
وعند صفو الليالى يحدث الكدر

وقال : صاحب الحزن يقطع من الطريق فى شهر مالا يقطعه غيره فى عام ويروى عنه القشيرى فى رسالته آن شاه الكرمانى — وهو من كبار الشيوخ — تعود السهر ، فغلبه النوم مرة فرآى الحق سبحانه فى النوم ، فكان يتكلف النوم بعد ذلك فقيل له فى ذلك فقال :

رآيت سرور قلبى فى منامى
فأحببت التنعس والمناما(١)

---

(١) الرساله ص ١٩٣ .

(ب) الرؤيا

تفسير أهمية الرؤى عند الصالحين فى نظرنا يرجع الى أن صفاء الوعى عندهم يصحبه صفاء فى اللاوعى ، وكلاهما امتداد للآخر .. ومادام الوعى مشحونا بذكر الله وخشيته ، مقرونا بالمشاهدات والكشوفات أو بالتطلع والتشوق اليها فان ذلك يتسرب الى اللاشعور ، ويشغله ، ونحن نعلم مدى نشاط اللاشعور عند النوم . والخلاصة أن الحياة الروحية تكتمل عند الأصفياء باللاشعور والشعور معا . ولا عجب بعد ذلك أن يتحقق المنام تحققا كليا أو جزئيا ، وتصبح الرؤيا كرامة من الكرامات .

والقشيرى يؤمن بالرؤيا ايمانا مستمدا من هذه الرؤى التى ذكرها القرآن الكريم ، والتى وردت عن الرسول ﷺ وعن جيل الصحابة والتابعين ، وعن كبار المشايخ فى هذا الطريق — والذين عقد لهم فصلا بلغ نحو عشر ورقات فى رسالته ، والى جوار ذلك يؤمن بها من تجربته الشخصية مع أستاذه الدقاق تارة ومع نفسه تارة أخرى . ويحدثنا السبكى عنه فيقول (كان قد مرض للقشيرى ولد فشق عليه ، فرأى الحق سبحانه وتعالى فى المنام فشكا اليه . فقال له : اجمع آيات الشفاء ، واقرأها عليه ، واكتبها فى اناء واجعل فيه مشروبا واسقه اياه ، ففعل ذلك وعوفى الولد) .

واذا كان القشيرى يرى فى باب « رؤيا النوم » بالرسالة أن رؤية الحق — سبحانه — فى المنام تدل على أن الرائى من أهل الصلاح فان

ابن العماد الحنبلى يروى عنه هذه الرواية : (قال أبو القاسم القشيرى رأيت ربى ـ عز وجل فى المنام وهو يخاطبنى وأخاطبه فكان فى أثناء ذلك أن قال الرب ـ تعالى اسمه ـ أقبل الرجل الصالح ، فالتفت فاذا أحمد الثعالبى مقبل شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٣١ .

ونلمح اهتمام القشيرى بالرؤى فى لطائفه عند تفسير الايات الكريمة التي وردت فيها الرؤيا . من ذلك قوله (كان سبب بلاء يوسف رؤيا رآها فنشرها مع أن اباه أوصاه أن يكتمها عن اخوته : يابنى لا تقصص رؤياك على اخوتك » وكان سبب نجاته رؤيا الملك اظهرها : قال الملك انى أرى سبع بقرات) .

وفى موضع آخر يقول عند قوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام) : كان السبب فى نزولها أن النبى ﷺ . رأى فى منامه انهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، وبشر به أصحابه فلما صدهم المشركون خامر قلوبهم شيء ، وعاد الى قلوبهم بعض تهمة ، فسكنت قلوبهم فانزل الله هذه الايه) لطائف الاشارات ص ٣٢٢ .

والخلاصة ان الشيخ مهتم بالرؤيا ، وان هذا الاهتمام سمة من سمات تجربته الذاتية تمتد من تجربته الروحية عبر بحوثه ، وتدعوه الى الاهتمام بها والتعويل عليها .

(ج) حال التمكين

هذه هى حال العارفين بالله ، الأولياء ، الموحدين ولكى نتفهمها بدقة نقارن بين انوار المعرفة بالعقل ثم بالقلب ثم بالروح ثم بالسر

ـ وعند القشيرى زاد عن الباحثين بسر السر أو حــق اليقين ـ وبين أنوار الشمعه ثم المصباح ثم البدر ثم الشمس •

فكل نور من واحد منها يطغى على نور ما سبقه . والشمس هنا لا تغيب أبدا ، والعبــد المتمكن معمور بنورها دومــا ، وهــذا الدوام لا يمنع من أن يمشي العبد فى الأرض باحثا فى مناكبها عن رزقه المرتبط مباشرة بالرزاق المنعم الوهاب •• ولا أحــد سواه ، ولا يمنع من أن يستريح وينام ، فنومه ـ كما قلنا ـ امتداد ليقظته ، وعند الخلوة يكون اللقاء وتكون القيامة ـ على حد تعبير القشيرى فى مصنفاته ، وأهــم شيء فى حال التمكين هو سكون السر سكونا تاما وبمقدار هذا السكون لا يحدث التلوين ، ولا يعود العبد للتقليب بين الواردات ـ كما اتضح ، بل تهدأ حاله عند نقطة معينة ثابتة هى أشبه بما نعرف من ثبات درجة الغليان للماء أو للسوائل الأخرى ، فالماء النقى لا تزيد درجته عن مائه مهما امتد وضعه على النــار ، وتتغير هذه الدرجة بمقدار الشوائب فيــــه •

بهذا التقريب للفهم نستطيع أن نتفهم قول القشيرى فى آخــر كتابه هذا : « وسكن عندى كل ذلك ، والى سنه كاملة لم تعد لى حالتى من قــوة الحس ، كما أنــه لم يــرد على البتــة شيء يزيد فى حالى أو ينقص منه » •

ويقارن القشيرى بين حالى التلوين والتمكين فيقول فى رسالته : التلوين صفة أرباب الأحــوال (أى الذين مــا زالوا على الطــريق) أما التمكين فهو صفة أهل الحقائق ، صاحب التلوين يرتقى من حال الى حــال ، وينتقل من وصف الى وصف ، ويخرج من مرحل ويحصل فى مربع فاذا وصل •• تمكن ، وأنشدوا :

مـا زلت أنـزل فى ودادك منـزلا
تتحـير الألبـاب عـند نزولـه

صـاحب التلوين ابدا فى الزيادة ، وصـاحب التمكين وصـل ثم اتصل ، وامارة انه اتصل أنه بالكلية عن كليته بطل ، ذلك أن اهـل الحقائق يرتقون عن وصف التأثر بالطوارق ، الرسالة ص ٤٤ ، ٤٥ •

اما عن نحول البدن ، وما يطرأ عليه من هزال فيحدثنا العطار عن السرى السقطى — وهو من كبار الشيوخ — بانه « قد يبس جلده على عظمه من حب الله » التذكرة جـ ١ ص ٢٧٧ •

ويتحدث السقطى نفسه عن ذلك فيقول :

ولمـا ادعيـت الحـب قالت كذبتنى
فمـالى ارى الأعضـاء منـك كواسيا
فما الحب حتى يلصق الجلد بالحشـا
وتذبـل حتـى لا تجيـب المناديا
وتنحـل حتـى لا يبقـى لك الهـوى
سـوى مقلـة تبكى بهـا أو تناجيـا
(اللمع ص ٣٢١)

تلك سُجون الحب ولواعجه ، وكيف نستكثر ذلك على حب مخلوق لخالقه بينما المجنون يقول فى ليلاه •

ولـم يبـق الا الجلد والعظـم عاريا
ولا عظمة لى أن دام مـا بى ولا جلد
غزتنى جنـود الحـب من كل جانـب
اذا حـاق عن جنـد قفول أتى جندا

ولهــذا نجد هؤلاء الصفوة المحبين رغم عذابهم فى هــذا الحب لا يستطيعون عنه فكاكا ، بل يرونه سر وجودهم ، ومبعث سعادتهم •• يقول الحلاج :

مكــانك من قلبــى هــو القلب كلــه
فليــس لخلــق فى مكــانك موضـــع
وحطتك روحــى بين جلدى واعظــمى
فكيــف ترانــى ان فقــدتك اصـــنع

ويقول أبو حمزة الخرساني مناجيا ربه :
وتحيى محبــا ــ أنت فى الحــب حتفه
وذا عجــب كون الحيــاة مــع الحتــف

ويصر سلطان العاشقين ابن الفارض على هذا فيقول :
قلبــــى يحــــدثنى بانــك متلفــــى
روحــى فــداك عرفــت أم لم تعــرف

أى سواء تفضلت فانعمت على ، واحتسبته أم لم تتفضل •

انه الحب الكبير الذى يوقد البدن ولكنه يغذى الروح بهذا الزاد العاطفى النبيل وهو خير لهم من كل أطايب الدنيا وزينتها •

اهم المراجع والمصادر

- مصنفات القشيري — المطبوعة والمخطوطة
- حلية الاولياء — لابي نعيم الاصفهاني
- تذكرة الأولياء — لفريد الدين العطار
- الكواكب الدريه في تراجم الصوفيه — لعبد الرءوف المناوى
- اللمع — لابي نصر السراج .
- التعرف لمذهب اهل التصوف — للكلاباذى
- عوارف المعارف — للسهروردى
- طبقات الصوفيه — لابي عبد الرحمن السلمي
- الطبقات الكبرى — للشعراني
- دائرة المعارف الاسلامية — مادة تصوف
- تذكرة الحفاظ — للحافظ شمس الدين الذهبي
- كشف المحجوب — للهجويرى
- قوت القلوب — لابي طالب المكي .
- تاريخ بغداد — للخطيب البغدادى
- شذرات الذهب — لابن العماد الحنبلي
- صفة الصفوة — لابن الجوزى
- طبقات الشافعية — لتاج الدين السبكى
- منازل السائرين — لابي عبد الله الانصارى الهروى

وغير ذلك مما ذكر في هوامش الشروح .

الفهرس